

مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات

الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... الولاء والبرائة

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م

الكمية.. ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

المائدة: ٥٥

الصراع بين الولاء والبراءة

ليس الصراع من أجل استقطاب ولاء الناس بأمر طارئ أو جديد في حياة البشرية وتاريخها الطويل، وإنما هو من أقدم أنماط الصراع في تاريخ الإنسان يتقابل فيه محوران:

الأول: المحور الرباني وماله من امتدادات في حياة الإنسان، وهو محور (التوحيد).

والثاني: محور الطاغوت، الذي يحاول أن يستقطب ولاء الناس لنفسه، ويعمل على انتزاعه منهم.

ولكل طاغوت محوره الخاص به ولكن هذه المحاور جميعاً تقع في قبال المحور الرباني للولاية في حياة الإنسان.

فالولاء لله تعالى من مقولة التوحيد دائماً، وتوحيد الولاء من أهم مقولات التوحيد. فليس للإنسان أن يحتفظ لنفسه بولاء آخر إلى جانب ولاء الله تعالى، مهما كان نوع ذلك الولاء الآخر ومهما كانت درجته؛ فإنّ أي ولاء آخر ـ غير ولاء الله ـ لابدّ وأن يقع في مقابل ولاء الله لا محالة، وأكثر مصاديق الشرك الذي كان يحاربه الأنبياءعليهم السلام، والذي ينقله القرآن الكريم من شرك الولاء وليس من الشرك في

الخالق.

فقليل من الناس من يشرك بالله، ويعتقد بوجود اله خالق غيره لهذا الكون، ولكن الكثير منهم من يشرك بالله في الولاء فيشرك «غير الله» مع «الله تعالى» في ولائه، ويوزّع ولائه وطاعته «لله» و«لغير الله» معاً، فيعطي للطاغوت حظاً من ولائه ونصيباً من طاعته، ويعطي لله تعالى حظاً من ولائه وطاعته.

وقد كان صراع «التوحيد» و«الشرك» في حياة الأنبياءعليهم السلام في أمر الولاء من أغلب حالات الصراع وأبرزها، وكان الأنبياءعليهم السلام يعملون لتوحيد الولاء، وتوحيد محور الولاية في حياة الإنسان، ويدعون البشرية إلى «ولاء الله وطاعته» ويأمرونهم برفض كل ولاء آخر غير الولاء له سبحانه.

فالمعركة هنا حول مسألة واحدة، وهي: حق الحاكمية في حياة الإنسان.

وحق الحاكمية حق واحد لا يتجزأ ولا يتعدد، فإمّا أن يكون «لله تعالى» فلا يقبل شريكاً ولا نداً، وإمّا أن يكون «لغير الله» فيكون من الشرك بالله سبحانه.

وتنشطر البشرية حول هذه المسألة إلى شطرين:

شطر منها: يوحد الله تعالى بالولاء والطاعة، ولا يقبل لله سبحانه شريكاً في الولاية والحاكمية.

والآخر: يقبل في الحياة محاور أخرى للولاية وينقاد لها.

وقد يكون الولاء للهوى، وقد يكون للطاغوت.

ويعتبر الصراع بين هذين الشطرين من البشرية كبرى قضايا الإنسان وأهم أحداث تاريخ حياة الإنسان على وجه الأرض.

فهي مسألة جدّية وحقيقية في حياة الإنسان، تتطلب منه موقفاً محدداً وصريحاً، وتتطلب منه ثباتاً على الموقف، مهما كلّفه ذلك من جهد وعمل، ومهما احتاج إلى ضرائب وتضحيات.

وليست مسألة الولاء في حياة الإنسان مسألة مساومة و لا مجاملة، وإنما هي عنوان شخصية الإنسان وقيمته، والذي ليس له ولاء لله تعالى يرتبط به في حياته، لا يزيد على أن يكون ريشة في مهب الرياح السياسية والأهواء والمتغيرات.

والولاء لله يحدد للامسان معالم شخصيته التي تتمثل في خلافته لله تعالى على وجه الأرض، ويحدد له الموقف والمنطلق والمسار والغاية.

والمسألة التي تكون بهذه الدرجة من الأهمية في حياة الإنسان، لا يجوز للإنسان أن يتناولها بضعف ويتعامل معها بتسامح وتساهل

ومرونة... بل عليه أن يأخذها بقوة، ويكون في أمرها واضحاً وصريحاً وجاداً وقوياً.

كيف يكون الولاء؟

يتجسد الولاء لله سبحانه وتعالى عبر الارتباط به سبحانه من خلال:

١ ـ الطاعة والانقياد والتسليم

يقول تعالى:

أ ـ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

ب ـ ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾[2].

ج ـ ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[3].

د ـ ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ﴾[4].

هـ ـ ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[5].

و ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[6].

ز ـ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[7].

شوكما أن الولاء لله يتطلب الطاعة لله وللرسول والانقياد والتسليم، فإنّه يتطلب كذلك، رفض الطاعة لغير الله.

يقول تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾[٨].

٢ ـ الحب والإخلاص لله سبحانه وتعالى

يقول تعالى:

أ ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٩].

ب ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾[١٠].

٣ ـ النصرة لله ولرسوله وللمؤمنين:

يقول تعالى:

أ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١١].

ب ـ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١٢].

ج ـ ﴿وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[١٣].

د ـ ﴿وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[١٤].

هـ ـ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٥].

دور الولاء في حياة الإنسان:

والولاء بهذا المعنى الشامل يستقطب كل قدرات الإنسان وإمكاناته ومواهبه وميوله حول محور واحد، ويوجّه كل قدراته وطاقاته ورغباته في خدمة ذلك المحور، وبالتالي فإنّه ـ أي الولاء ـ يفرض هيمنة شاملة لهذا المحور على الإنسان كله، فينقذ الإنسان من التشتت والتمزق والضياع الذي يعاني منه كثير من الناس، حيث تتوزعهم أمور متباينة وعوامل مختلفة وجهات شتى.

فأول ما يصنع توحيد الولاء في كيان الإنسان هو أنه يجمع كل كيانه حول نقطة واحدة.

ثم يوجه ـ ثانياً ـ هذه المجموعة المنسجمة من الإمكانات والطاقات من ميول ورغبات وأفعال... باتجاه واحد، وهو الصراط المستقيم الذي يأمر به الله تعالى، فيتحول الإنسان ـ حينئذ ـ من كائن ضعيف متشتت البال والأحوال ومتوزع القوى والقدرات، إلى كائن قوي فاعل في

الاتجاه الذي يسير فيه، لا تتنازعه العوامل المختلفة، ولا يصيبه الضعف أو التردد أو الوهن، ولا يعاني من الحيرة في العمل، ولا يلابسه لبس أو غموض أو شك في التحرك.

يحرره من جميع المحاور التي تهدده باحتواء حياته وجهده وحركته كالأهواء والانا والطاغوت والمال والمتاع.

ويمنحه الانسجام التام بين الجوارح والجوانح، بين الظاهر والباطن، بين الخارج والداخل. ذلك أن الولاء لا يفرض هيمنة قسرية على جوارح الإنسان وعمله وتحركه.

ومن أهم خصائص هذه «الهيمنة» و«المحورية» هي أنها لا تأتي عن قهر وإرغام وقسر، وإنما تصدر عن انسجام نفسي كامل للإنسان مع هذا المحور وانجذاب شامل نحوه.

ولذلك، فإنّ حب الله والحب في الله من أهم عناصر الولاء ومقوماته.

والولاء يمنح الإنسان الانسجام ما بين عمل جوارحه وتوجه جوانحه، يجعل طاعة الإنسان لله وانقياده له وعبادته إياه عن رغبة وحب وشوق.

الولاء والطاعة في حياة الأُمّة:

إن الإسلام شريعة قائدة في حياة الإنسان، تتولى تنظيم المجتمع وإدارة شؤونه وتوجيه الناس باتجاه تحقيق أهداف الدعوة وغاياتها، ولايمكن أن يتحقق شيء من ذلك من دون وجود ممارسة فعلية للقيادة والحاكمية في المجتمع المسلم، وهذه القيادة والحاكمية هي التي يسميها القرآن الكريم بـ«الإمامة».

وطاعة الرسول والإمام وأولي الأمر ليست في الجانب التشريعي من هذا الدين، وإنما هي شيء آخر يختلف عنه، حيث إن طاعة الرسول فيما يبلّغ الناس من أحكام الله وتشريعاته، هي طاعة لله تعالى في التشريع، والأنبياء عليهم السلام مبلّغون لتلك الأحكام، ولا تكون تلك الأحكام والتكاليف طاعة لهم عليهم السلام في حين أن القرآن الكريم يصرح بوجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وطاعة أُولي الأمر من بعد الرسول صلى الله عليه وآله امتداداً لطاعة الله، يقول تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[16].

فهذه الطاعة ليست إذن من طاعة الله في امتثال أحكامه والالتزام بالحلال والحرام، وإلاّ لما أمر الله بها بعد الأمر بطاعته، ولما كان هناك معنى لطاعة الرسول وأولي الأمر.

فطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وأولي الأمر ـ إذن ـ هي غير طاعة الله في

الأحكام الشرعية ـ وإن كانت في امتداد طاعة الله تعالى، وهي في دائرة الفراغ التي تتركها الشريعة لأولياء أمور المسلمين فيما تتطلبه مصلحة الإسلام والأُمّة المسلمة، مما لا يمكن ضبطها في الشريعة بأحكام ثابتة.

ومن أجل أن يمارس هذا الدين دوره القائد في حياة الإنسان، فإنّه لابُدّ من وجود ممارسة فعلية للقيادة والحاكمية في حياة الناس.

ولكي يؤدي الحاكم هذه المهمة الصعبة، ويتمكن من مواجهة التحديات وإزالة العقبات، والاستمرار على مسيرة ذات الشوكة، فإنّه لابُدّ من (النصرة) و(الحب) و(الطاعة)، وهذه معالم وشروط ثلاثة للولاء من الناس تجاه أُولي الأمر

ومن دون أن تسود المحبة والمودة والانسجام النفسي بين الرعية والحاكم والنصرة والطاعة، لا يستطيع الحاكم أن يوجّه هذه المسيرة ويواجه العقبات.

الولاية والبراءة

ولما كانت رسالة هذا الدين رسالة عالمية، وكانت مهمة الأُمّة هي إبلاغ هذه الرسالة إلى البشرية جميعاً، وتحرير الإنسان من الطاغوت، وتعبيده لله الواحد، كان لابُدّ لهذا الدين أن يكون ذو طبيعة حركية وجهادية، وهذا يتطلب من الأُمّة حالتين أساسيتين في الداخل

والخارج، وهما:

١ ـ التماسك والترابط والتواصل من الداخل

فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ**﴾[١٧].

﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ**﴾[١٨].

وفي الحديث:

* عن رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

* وعنه ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[١٩].

* وعن الإمام الصادق عليه السلام: «تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله»[٢٠].

٢ ـ المفاصلة الكاملة مع أعداء الله ورسوله الذين يتربصون بهذا الدين سوءاً.

يقول تعالى: ﴿**لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢١].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء من دُون الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢٢].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء**

بَعْض وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[٢٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾[٢٤].

وهذه هي حالة البراءة من أعداء الله تعالى وأعداء الرسول ﷺ وتحريم موالاتهم ومودتهم والتحبب إليهم.

ويتطلب هذا الترابط القوي من الداخل، وهذه المفاصلة التامة من الخارج، وجود قيادة مركزية تتولى قيادة مسيرة الأُمّة لمواجهة التحديات واجتياز العقبات، تعمل على ربط هذه الأُمّة بعضها ببعض في كتلة مرصوصة واحدة من الداخل، وفصلها عن أعدائها الذين يريدون بها سوءاً من الخارج[٢٥] ثم تقوم بتوجيه هذه الكتلة المجتمعة باتجاه تحقيق الأهداف الكبرى لهذه الدعوة على وجه الأرض كلها.

وهذه القيادة التي لابُدّ من وجودها في كيان هذه الأُمّة، والتي تمتلك من الأُمّة الطاعة والنصرة والحب (العناصر الثلاثة للولاء)، هي التي يصطلح عليها القرآن الكريم بإسم الإمام أو ولي الأمر.

الولاية امتداد للمحور الإلهي

إلاّ أن هذا المحور الذي يستقطب الطاعة والتأييد والنصر والحب من الأُمّة لا يعتبر محوراً آخر في قبال المحور الرباني للولاية في هذا

الكون، ولن يكون محوراً جديداً غير هذا المحور الإلهي؛ فإنّ أي محور آخر للولاية في قبال المحور الإلهي هو طاغوت تجب مكافحته ومحاربته.

فيكون الولي ـ إذن ـ امتداداً لهذا المحور الرباني، وتجب طاعته ونصره وحبه امتداداً لوجوب طاعة الله ونصره وحبه.

وليس محوراً جديداً، والولاية من أهم مقولات التوحيد، ولايمكن أن تتعدد محاور الولاء أبداً.

والولاء إمّا أن يكون أو لا يكون.

فإذا كان الولاء لله فلابُدّ وأن يكون بوجهه الايجابي والسلبي (الذي هو رفض الولاء لغير الله) معاً، ولا تقل قيمة الوجه السلبي عن قيمة الوجه الايجابي.

ولا يتم الولاء لله تعالى إلاّ برفض أي ولاء آخر إلى جانب ولاء الله فضلا عن أن يكون من دونه.

ضرورة توحيد الولاء

وبناءً على ما تقدم فإنّ مسألة توحيد الولاء من أهم خصائص الولاء، وقد سبق أن أشرنا إلى أن أكثر مصاديق الشرك في القرآن الكريم هو الشرك في الولاء وليس الشرك في الخالق.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾[26].

يضرب الله سبحانه لنا مثلا في «التوحيد» و«الشرك» برجلين:

أحدهما: يتنازعه شركاء متشاكسون، لكل واحد منهم ولاية عليه وسلطان، فهؤلاء الشركاء مختلفون فيما بينهم، وهو موزع بينهم.

والآخر: قد أسلم أمره إلى رجل واحد فقط ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، يطيعه في كل شيء، وينقاد له في كل أمر، ويتقبل ولايته وحاكميته في كل شأن بلا منازع، وهكذا الأمر بالنسبة للتوحيد والشرك.

فالموحدون من الناس كالرجل الثاني الذي أسلم أمره لواحد، فهو في راحة من أمره.

والمشركون من الناس كالرجل الأول الذي يتنازعه شركاء متشاكسون.

وقال تعالى عن لسان يوسف عليه السلام:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[27].

إن صاحبي يوسف عليه السلام في السجن لم يكونا ينكران الله الواحد القهار، وإنما كانا يشركان أرباباً متفرقين مع الله في الولاية والحاكمية

على حياتهم، فأنكر يوسف عليه السلام عليهم أنهم لم يسلّموا أمورهم كلها لله الواحد القهار.

ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام في أسباب البعثة:

«بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله ليخرج عباده من عبادة عباده إلى عبادته، ومن عهود عباده إلى عهوده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته»[28].

الله تعالى وحده مصدر الولاية والحاكمية والسلطان:

فالولاية ـ إذن ـ محور ثابت، لا يتعدد، ولا يتجزأ، ولا يتغير، وهي لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه يمنح هذه الولاية إلى من يشاء من عباده، والى من يرتضي من الناس.

فلن تكون ثمة ولاية ـ إذن ـ في قبال ولاية الله.

ولن تكون هناك أي ولاية ـ أبداً ـ بغير إذن الله، ولا حاكمية من دون أمره[29].

فإنّ الولاية المشروعة في حياة الأُمّة، لما كانت امتداداً لولاية الله، فإنّها لابّدّ وان تكون بإذن الله وأمره.

وما لم يأذن الله لأحد من الناس بأن يلي أمر عباده لن يكون له الحق في أن يتولى شيئاً من أمور الأُمّة.

وبمراجعة القرآن الكريم نجد هذه الحقيقة واضحة فيما يحكي الله تعالى لنا من تنصيب عباد له أولياءاً وأئمةً وخلفاء على الناس، لم تتم لهم إمامة ولا ولاية على الأُمّة لولا أن الله تعالى قد خصّهم بذلك وأناط إليهم هذا الأمر.

ففي قصة إبراهيم عليه السلام، يقول تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي؟ قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[30].

والإمامة ـ هنا ـ بمعنى الولاية، فقد جعله الله تعالى إماماً بعد أن كان نبياً.

وفي قصة داود عليه السلام، يقول تعالى:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[31].

والخلافة هنا بقرينة قوله تعالى: **﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾** هي الولاية والحاكمية.

يقول تعالى عن ذرية إبراهيم عليه السلام لما نجّاه الله تعالى من القوم الظالمين:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء

الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[32].

ولا نريد ـ هنا ـ أن نسهب في هذا القول، فله مجاله الخاص في البحث، وإنّما نريد ـ فقط ـ أن نشير إشارة سريعة إلى أن مصدر الحاكمية والسلطان في حياة الإنسان هو الله تعالى، وليس الأُمّة ـ كما تذهب الاتجاهات الديمقراطية إلى ذلك ـ وليس لأحد من دون إذن الله تعالى أن يتولى أمراً من أمور المسلمين، كما أن الله تعالى لم يفوّض الناس هذه الصلاحية في اختيار من يرونه أهلا للولاية والإمامة.

فالأصل في الأمر هو أن الله سبحانه وتعالى مصدر السلطة والحاكمية في حياة الناس، وليس هناك في النصوص الشرعية ما يشير إلى أن الله عزّوجلّ قد فوّض الأُمّةَ هذا الأمر.

فولاية الله تعالى ـ في حياة الناس لا يقتصر أمرها ـ إذن ـ على نفوذ الأحكام الشرعية المحددة من قبل الله تعالى في حق عباده، وإنما تعني الممارسة الفعلية للحاكمية، والأمر والنهي في حياة الإنسان من خلال أُولئك الذين اتخذهم الله أولياء له، وجعلهم أئمة للبشر وخلفاء على الناس.

دور الولاية وأهميتها في حياة الأُمّة:

هناك طائفة واسعة من النصوص الإسلامية التي وردت في أهمية

الولاية وقيمتها في حياة الأُمّة، وموقعها من هذا الدين الحنيف، ونـذكر نماذج منها:

* عن أبـي جعفرعليه السلام أنـه قـال: «بنـي الإسـلام علـى خمـس: علـى الصلاة والزكاة والصوم والحج والولايـة، ولـم ينـاد بشـيء كمـا نـودي بالولاية»[٣٣].

* وعن عجلان بن صالح قال: «قلت لأبي عبد اللهعليه السلام أوقفني علـى حدود الإيمان، فقالعليه السلام: شـهادة أن لا الـه إلاّ الله، وأن محمـداً رسـول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وصلاة الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا، وعداوة عـدونا، والـدخول مـع الصادقين»[٣٤].

* وعن أبي جعفرعليه السلام أنه قـال: «بنـي الإسـلام علـى خمسـة أشـياء: على الصـلاة، والزكـاة، والصـوم، والحـج، والولايـة، قـال زرارة (راوي الحديث) فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ قـالعليه السلام: الولايـة أفضـل، لأنه مفتاحهن، و الوالي هو الـدليل علـيهن... ثـم قـالعليه السلام: ذروة الأمـر، وسنامه، ومفتاحه، وباب الأشـياء، ورضـى الـرحمن الطاعـة للإمـام بعـد معرفته. إن الله عزّوجلّ يقـول: ﴿**مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّـهَ وَمَـن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾[٣٥]. أما لـو أن رجـلا قـام ليلـه، وصـام

نهاره، وتصدق بجميع ماله، وحج جميع دهره، ولم يعـرف ولايـة ولـي الله، فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كـان لـه علـى الله حـق في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان... ثم قالعليه السلام: أُولئك المحسن منهم يدخله الله الجنة بفضل رحمته»[٣٦].

ويتوقف الإنسان للتأمل في هذا الحديث طويلا، فمن قام ليله وصام نهاره... ولم يعرف ولاية ولي الله ما كان له على الله حق فـي ثوابـه، ولا كان من أهل الإيمان؛ وذلك لان جوهر الدين ليس عبارة عن مجموعة تعليمـات مـن العبـادات والمعـاملات والعقـود والإيقاعـات، وإنمـا هـو الارتباط بالله ورسوله وأوليائه.

وعن طريق هذا الارتباط يتم للإنسان المؤمن تحديد معالم دينه.

وقد أمر رسول اللهصلى الله عليه وآله أمته من بعده بالارتبـاط بأهـل بيتـهعليهم السلام بعـد كتاب الله لتحديد معالم دينهم.

يقول رسول اللهصلى الله عليه وآله: «ألا أيها الناس، إنما أنـا بشـر يوشـك أن يـأتي رسول ربي فأجيـب، وأنـا تـارك فـيكم ثقلـين؛ أولهمـا: كتـاب الله، فيـه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحـث علـى كتـاب الله ورغـب فيـه ثـم قـالصلى الله عليه وآله: وأهـل بيتـي، أذكـركم الله فـي أهـل بيتـي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[٣٧].

وعن طريق هذا الارتباط يتم تنظيم المجتمع، وتحريك الأُمّة، وتوجيهها، وقيادتها باتجاه تحرير الإنسان من عبودية الهوى والطاغوت، وتعبيده لله الواحد الأحد وترسيخ الدعوة إلى الله على وجه الأرض.

فمسألة الولاية ـ إذن ـ مسألة أساسية في هذا الدين، ولا يستطيع هذا الدين أن يؤدي دوره الأساسي في ربط الإنسان بالله تعالى، وفي قيادة الإنسان إلى تحقيق أهداف هذا الدين في الحياة، وتعبيد الإنسان لله، وإزالة الحواجز التي يزرعها الطاغوت في طريق هذه الدعوة من دون «الولاية».

وهذه الحقيقة تقرر حتمية الصراع بين محوري «الولاية» و«الطاغوت»، بشكل دائم في تاريخ الإنسان.

الإنسان بين محوري «الولاية» و«الطاغوت»:

إن هذين المحورين يعملان باتجاهين متعاكسين في حياة الإنسان، وكل منهما يعمل لاستقطاب ولاء الإنسان ويحاول فصل الإنسان عن المحور الآخر.

إذن، رسالة الولاء لله تعالى هي:

ـ استقطاب ولاء الأُمّة حول محور الولاية، وإنقاذ الأُمّة من التشتت والضياع والاختلاف.

ـ توجيه الأُمّة وتوحيد حركتها باتجاه إسقاط محور الطاغوت وتحرير الإنسان من عبودية الطاغوت والهوى.

ـ إسقاط الطاغوت وإزالة العقبات من أمام طريق الإنسان إلى الله تعالى.

ربط الإنسان بالله وتعبيده لله تعالى

وفي قبال هذا المحور الرباني، يعمل محور الطاغوت على استقطاب ولاء الناس، ويحاول وضع الحواجز والعقبات في طريق الناس إلى الله تعالى، ويسعى لاستعباد الإنسان وإخراجه من النور إلى الظلمات.

والى هذا الصراع بين محوري «الولاية» و«الطاغوت» تشير الآية الكريمة: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[38].

ولما كانت هذه المهمة التي يتولى أمرها الطاغوت، لا تتحقق إلاّ من خلال استضعاف الإنسان وإذلاله فإنّ الطاغوت يتبع أساليب كثيرة في استضعاف الإنسان، وسلب ثقته بنفسه وتضليله وعند ذلك ـ فقط ـ

يتيسر للطاغوت أن يكسب ولاء الإنسان وطاعته وانقياده.

يقول تعالى عن فرعون: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾[٣٩].

ومهما يكن من أمر فإنّ الصراع بين هذين المحورين: محور الولاية ومحور الطاغوت، هو من كبريات قضايا التاريخ ومن أهم العوامل المحركة لعجلة التاريخ.

ومن خلال فهم هذا الصراع نستطيع أن نفهم الكثير من أحداث التاريخ وقضاياه الكبرى ومنعطفاته وثوابته ومتغيراته.

خصائص الصراع بين محوري «الولاية» و«الطاغوت»:

خصائص الصراع بين الحق والباطل

ومن خصائص هذا الصراع التاريخي، والمعركة الممتدة بين محوري الولاية والطاغوت (الحق والباطل):

١ ـ إن المعركة عقائدية في جوهرها:

يتمثل في صراع عقائدي حول «التوحيد» و«الشرك».

وقد ورد أكثر موارد «الشرك» و«التوحيد» في القرآن الكريم، في التوحيد والشرك في الولاء.

٢ ـ إنها معركة حضارية بين حضارتين:

لكل منهما خصائصها التي تميزها عن الأخرى، وهما «الحضارة الربانية» و«الحضارة الجاهلية».

إذن الانتماء إلى أي من المحورين ليس ـ فقط ـ انتماءاً سياسياً إلى محاور القوة والسيادة، وإنما هو ـ أيضاً ـ انتماء حضاري تستتبعه خصائص ومميزات حضارية في أسلوب التفكير والأخلاق والعمل والعلاقة مع الله تعالى ومع النفس ومع الآخرين ومع الأشياء.

فالصراع بين هذين المحورين ـ إذن ـ بمعنى الصراع بين حضارتين بكل دقة.

٣ ـ إنها معركة سياسية على مراكز القوى:

من المال والقوة العسكرية ووسائل التوجيه والثقافة والإعلام.

فلاشكّ في أن كلا من هذين المحورين يعمل للاستيلاء على مراكز القوى في المجتمع، ويعمل لاستخدام هذه المراكز لتمكين محوره وخطه.

٤ ـ إنها معركة حتمية:

تدخل ضمن حتميات التاريخ الكبرى، ولايمكن للإنسان أن

يتخلص منها أو يتجنب آثارها بأي حال من الأحوال.

حيث أنّ طبيعة تقاطع تلك المحاور والخطوط تستدعي حتمية هذه المعركة في كل زمان ومكان.

ولذا، فإنّ أي عصر من العصور لم يخل من هذا الصراع... فهو قائم بين المحورين منذ أن خلق الله تعالى الإنسان ـ بهذه التركيبة الخاصة ـ على وجه الأرض، وحتى يومنا الحاضر.

وقد قرر القرآن الكريم حتمية هذا الصراع بين المحورين بشكل جازم، حيث قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[40].

٥ ـ إنها معركة مصيرية قد تطول وتدوم:

حيث أنّ كل محور من المحورين يعمل على استئصال المحور الآخر من على وجه الأرض، وإنهائه وتصفية مراكزه ومواقعه ووجوده بشكل عام.

فهي ليست معركة من أجل أرض أو ماء، وهي ليست معركة من أجل حدود برية أو بحرية، وهي ليست معركة من أجل آبار من النفط أو معدن ذهب أو فضة، وإنما هي معركة من أجل الوجود والكيان،

ولا يرضى كل من الطرفين إلاّ بتصفية الطرف الآخر تصفية كاملة.

قال تعالى: **﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾**[41].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[42].

فهذه المعركة تستمر حتى الاستئصال الكامل للكفر والجاهلية، والقضاء المبرم على الفتنة من على وجه الأرض، وإنهاء حالة التمرد على الله ورسوله إنهاء تاماً.

ولذلك فإنّ هذه المعركة معركة شرسة وحرب ضارية لايعرف التاريخ نظيراً لها في الشراسة والقسوة والحدّية.

والتفكير في اللقاء والتفاهم والحلول النصفية مع الكفر والطاغوت، هو تفكير فيه كثير من الفجاجة والضعف والهزيمة النفسية التي تؤدي إلى الخسران، إذ إن الهزيمة النفسية هي بداية كل هزيمة ميدانية، وبداية الهزيمة النفسية هي التفكير في إمكان اللقاء والتفاهم مع الطاغوت وإنهاء الصراع معه، والجلوس معه على موائد الصلح.

إن المعركة مع الطاغوت ـ إذن ـ معركة وجود وليست معركة

حدود، حتى يمكن التفاهم والتصافي والتعايش بسلام وتطبيع العلاقات.

٦ ـ إنها تتطلب موقفا من الأُمّة المؤمنة:

وأن تكون مواقفها واضحة وجدية وحاسمة في مسألة إعلان «الولاء» و«البراءة»، إعلان الولاء لله ولرسوله ولأولياء أمور المسلمين، وإعلان البراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه.

فلابُدّ ـ إذن ـ من موقف.

ولابُدّ وأن يكون الموقف واضحاً وجدياً ومعلناً.

فإنّ المعركة مع أئمة الكفر جدّ لا هزل فيها و لا مراء.

وإنها لقائمة لا انتظار لها.

وإنها لضارية لا تردد فيها أو استرخاء.

فلا يكفي أن يضمر الإنسان الحب لله ولرسوله ولأوليائه، من دون أن يكون له موقف، ومن دون أن يعرف الناس عنه ذلك.

ولايكفي أن يكون قلب الإنسان مع الله ورسوله وأوليائه، ويكون سيفه وحرابه عليهم[٤٣].

ولا يكفي أن يعطي المرء لله ورسوله وأوليائه بعضاً من نفسه وماله، ليعطي البعض الآخر منها للطاغوت.

ولا يكفي أن يعطي نفسه كلها لله تعالى، ولكنه يجامل الطاغوت أو يحتفظ لنفسه ببعض جسور العودة.

ذلك، لان الولاء كل لا يتجزأ وحقيقة وليس مجاز، وجدّ وليس بهزل.

فإمّا أن يكون كله لله تعالى، وإمّا أن لا يكون لله منه نصيب ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾.

فالولاء ـ إذن ـ يتطلب الموقف المحدد الثابت، والإشهار بالموقف في مسألة (الانتماء) و(الانفصال)، وفي الحب والبغض، وفي المودة والمعاداة، وفي التولي والتبرّي، وفي السلم والحرب.

٧ ـ إن (الولاء) و(البراءة) وجهان لحقيقة واحدة:

في هذه الصراع التاريخي وما تتطلبه من مواقف.

فلا ينفع «ولاء» من دون «براءة»، ولا يؤدي الولاء دوره الفاعل والمؤثر في حياة الأُمّة مالم يقترن بالبراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه.

فالموقف هنا لا يتكون من «الولاء» وحده، وإنما له وجهان: وجه ايجابي ووجه سالب، سلم وحرب، رحمة وقسوة، انتماء وانفصال، حب وبغض.

وما لم يجتمع هذان الوجهان في موقف الإنسان، فإنّ الموقف لن يكون موقفاً حقيقياً، متكاملا وإنما يكون شعبة من شعب النفاق وطوراً من أطوار المجاملة السياسية واللعب على الحبال.

قال تعالى: ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾[٤٤].

٨ ـ إن محور الطاغوت خط وحضارة وامتداد واحد:

كما أن محور الولاية مركز واحد، وخط واحد، وامتداد واحد على طول التاريخ. ونحن لا نفرق في الولاء بين أنبياء الله وأوليائه، القريب منهم من عصرنا والبعيد منهم عن عصرنا، فكلهم يحملون رسالة الله، ويبلغون دين الله، آتاهم الله من لدنه النبوة والإمامة والولاية على عباده. نواليهم جميعاً ونؤمن بما أنزل الله إليهم، ولانفرق بين أحد منهم، فإذا اختلفوا في بعض تفاصيل الشريعة بحكم اختلاف ظروف التنزيل نعمل بشريعة خاتم الأنبياء

قال تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٤٥].

وقال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٤٦].

وكما نوالي أولياء الله جميعاً، يجب أن نتبرأ من أعدائهم جميعاً.

وكما أن الولاء أمر واحد، فإنّ البراءة أمر واحد أيضاً.

فيجب أن نتبرأ من فرعون ونمرود، كما نتبرأ من أبي جهل ويزيد، وكما نتبرأ من طغاة عصرنا وجلاوزته.

فإنّ المعركة بين محوري (الحق) و(الباطل)، و(الهدى) و(الضلال)، و(أُولي الأمر) و(الطاغوت)، هي معركة حضارية، ولكل من الجبهتين جذورها الحضارية في أعماق الهدى أو الضلال، والمعركة في جوهرها معركة واحدة في كل مراحلها التاريخية، والولاء ولاء واحد والبراءة براءة واحدة، في كل مراحل الصراع.

واقعة الطف محك «الولاء» و«البراءة»:

بالرغم من مرور أكثر من ألف وثلاثمائة سنة على هذه الوقعة المفجعة... لا تزال تملك تأثيراً فوق العادة على النفوس والقلوب والعقول، وتفرض نفسها على كل من آتاه الله بصيرة ووعياً في دينه.

ولا تزال الأجيال تتلقى قضية كربلاء بحرارة وحماس، وتتفاعل معها في الإيجاب والسلب، في الولاء والبراءة، فما هو السر الكامن في هذه الوقعة؟

وما الذي جعل منها مرآة للولاء والبراءة، عبر هذا التاريخ الطويل؟

إن وقعة الطف تتميز بالوضوح الكامل الذي لايبقي شكاً لأحد في طرفي هذه المعركة.

فلم يكن بين المسلمين يومئذ من يتردد لحظة واحدة ـ وهو يقف على ساحة الصراع بين أبي عبد الله الحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية ـ في الحكم بأن الحسين عليه السلام على هدى وأن يزيد على ضلال.

فمن وقف مع الحسين عليه السلام وقف عن بيّنة، ومن وقف مع يزيد وقف عن علم؛ وقليل من مشاهد الصراع بين الحق والباطل، تمتلك كل هذا الوضوح الذي تمتلكه وقعة الطف.

فقد وقف الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء بين الصَّفَين مخاطباً جيش ابن زياد: «قائلا أيها الناس انسبوني من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟. ألست ابن بنت نبيكم؟ وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أوليس جعفر الطيار عمي؟ أو لم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة، فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق، فوالله ما تعمّدت الكذب منذ علمت أنّ الله يمقت عليه

أهله، ويضرّ به من اختلقه، وان كذبتموني فإنّ فيكم من إن سألتموه أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟

فقال الشمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك»[٤٧].

وعندما حاول الوليد ـ عامل يزيد على المدينة ـ أن يجبر الإمام الحسين عليه السلام على البيعة ليزيد، قال الإمام عليه السلام: «أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور وقاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[٤٨].

لقد كانت الجبهتان المتصارعتان في كربلاء متميزتين في انتمائهما لله وللطاغوت، ولم يكن الأمر يخفى على أحد.

فقد مضى أصحاب الحسين عليه السلام ليلة العاشر ولهم دوي كدوّي النحل بين قائم وقاعد وراكع وساجد[٤٩].

سمة العبيد من الخشوع عليهم   لله إن ضمتهم الأسحار
وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم   بيض القواضب أنهم أحرار[٥٠]

تقول فاطمة بنت الحسين عليه السلام: «وأمّا عمتي زينب فإنّها لم تزل قائمة في تلك الليلة في محرابها تستغيث إلى ربها، والله فما هدأت لنا عين ولا سكنت لنا رنة»[٥١].

هكذا كان الأمر في معسكر الحسين عليه السلام، شوق إلى لقاء الله، وإقبال على الله، وإعراض عن الدنيا و زخرفها، وانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى، حتى أن بعضهم كان يداعب أصحابه ويمازحه في ليلة العاشر، فقد هازل برير عبد الرحمن الأنصاري عليهما الرحمة، فقال له عبد الرحمن: ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلا ولا شاباً، ولكني مستبشر بما نحن لاقون، والله ما بيننا وبين الحور العين إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة[٥٢].

وأمّا الطرف الآخر في هذه المعركة (معسكر يزيد) فقد كان همّه هو ما يصيبه من الذهب والفضة والإمارة والجائزة، في قتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد تولى عمر بن سعد أمر قتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله طمعاً في إمارة الري.

يقول اليافعي: ووعد الأمير المذكور (عمر بن سعد) أن يملّكه مدينة الري، فباع الفاسق الرشد بالغي[٥٣].

وفيه يقول:

أأترك ملك الري والري بغيتي   أو أرجع مأثوماً بقتل حسين

ويقول الخطيب الخوارزمي:

وحزّ رأس الحسين بعض الفجرة الفاسقين، وحمله إلى ابن زياد، ودخل به عليه وهو يقول:

أوقر ركابي فضة وذهبا   إِني قتلت الملك المحجّبا[٥٤]
قتلت خير الناس أُماً وأبا   وخيرهم إذ يذكرون النسبا

فغضب ابن زياد من قوله وقال: إذا علمت أنه كذلك فلم قتلته؟ والله لا نلِتَ مني خيراً أبداً ولألحقتك به[٥٥].

ويتبجح الأخنس بن مرثد الحضرمي من رضهم للأجساد الطاهرة بعد استشهادهم، وهو يعلم أنه يعصي الله تعالى في طاعة أميره، فيقول ـ كما يروي الخوارزمي ـ:

نحن رضضنا الظهر بعد الصدر   بكل يعبوب شديد الأسر

حتـــى عصـــينا الله رب الأمـــر بصـنعنا مـع الحسـين الطهـر[٥٦]

فلم يكن في الأمر ـ بالنسبة لكـلا المعسـكرين ـ أي خفـاء، وجميـع الذين حضروا المعركة أو شاهدوها، أو وقفوا عليها من قريب أو بعيـد، كانوا يعرفون الحق والباطل فيها، وإنما تخلّف من تخلف إيثاراً للعافيـة ولم يشهر أحد فيها السيف على ابن بنـت رسـول الله (صلى الله عليه وآله) عـن لُبْس أو جهل بل عن وضوح وعلـم ودرايـة بأنـه يحـارب الله ورسـوله وأوليائـه بقتال الحسين (عليه السلام).

إن وقعـة الطـف لا تبقـي مجـالاً لأحـد فـي التـردد والتأمـل، فهـي المواجهة البيّنة بين الحق والباطـل، بـين جنـد الله وجنـد الشـيطان، بـين الهدى والضلال.

فلابُدّ من موقف محدد وواضح في هذه القضية.

فـإن لـم يكـن هـذا الموقـف موقـف الـولاء لجنـد الله والبـراءة مـن أعدائهم، فإنّه سيكون ـ لامحالة ـ موقـف الرضـى بفعـل يزيـد وجنـده، وهو الموقف الذي يستحق عليه صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله.

«فلعن الله أمة قتلتك، ولعـن الله أمـة ظلمتـك ولعـن الله أمـة سـمعت بذلك فرضيت به»[٥٧].

فمن خذل الحسين (عليه السلام) ولم يقف معه يوم استنصر المسـلمين، لابُـدّ

وأن يكون راضياً بفعل يزيد. ولو لم يكـن كـذلك لمـا أبطـأ عـن نصـرة الإمام (عليه السلام).

فالموقف المتفرّج من هـذا الصـراع يعتبـر مـن الخـذلان والموقـف السلبي الذي يستحق عليه صاحبه اللعن والطرد من رحمة الله الواسعة.

وموقف الحسين (عليه السلام) وأصحابه يومئذ كان امتـداداً لمواقـف الأنبيـاء وأنصارهم في التاريخ. والولاء للحسين (عليه السلام) ولاء لكل أوليـاء الله تعـالى في التاريخ، و البراءة من أعداء الحسين (عليه السلام) براءة من كل أعداء الله في التاريخ، وطريقة، السلام على الإمام الحسين (عليه السلام) في زيارة وارث، تشير إشارة واضحة إلى هذه الحقيقة، تأمّلوا جيداً في هذا النص الذي يسلّط الأضواء على الأعماق الحضارية لمعركة الطف:

«السلام عليك ياوارث ادم صـفوة الله، السـلام عليـك يـاوارث نـوح نبي الله، السلام عليك ياوارث إبراهيم خليل الله، السلام عليـك يـاوارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسـى روح الله، السـلام عليـك ياوارث محمد حبيب الله، السلام عليك ياوارث أميرالمؤمنين ولي الله».

إنَّ هذه الصفوة من أولياء الله إمتداد لهذه المسيرة المباركة العريقـة في التاريخ.

كمـا إن الـذين أعلنـوا الحـرب علـيهم كـانوا امتـداداً لأعـداء الله

ولمسيرة الطغيان والعصيان في التاريخ وكان همّهم إحباط دعوة الأنبياء، وكأنهم كُتْلة واحدة في مقابل جبهة الأنبياء، وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[٥٨] ويقول تعالى عن جبهة التوحيد: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[٥٩].

إن الإحساس بوحدة الولاء ووحدة البراءة يعمق وحدة المحور في حياة الأُمّة.

وان الشعور بوحدة المحور للأمة المسلمة يعمق الشعور بأن الأُمّة المسلمة على امتداد التاريخ ـ منذ ادم عليه السلام إلى اليوم الحاضر ـ هي أُسرة واحدة، تلتف حول محور واحد، وتحارب في جبهة واحدة، ومن أجل قضية واحدة، وتشترك في الحب والبغض والسلم والحرب، فقضيتها نفس القضية، ومهمتها على وجه الأرض واحدة، وخطها واحد، وحضارتها واحدة، وإيمانها واحد.

وعندما يتعمق الإحساس بوحدة الولاء ووحدة البراءة، ووحدة الحب ووحدة البغض، ووحدة الطاعة ووحدة العداء، ووحدة الإيمان، ووحدة الرفض، فسوف يتعمق الإحساس بوحدة الأُسرة المؤمنة في التاريخ وعلى وجه الأرض، فيشعر الإنسان المؤمن بأن الولاء لله ولرسوله ولأوليائه قد طوى به الزمان والمكان، ليجعل من هذه الأُمّة

المسلمة كلها كتلة واحدة، تتحدى في مشاعرها وأحاسيسها وإيمانها وحربها وسلمها ورسالتها الكفر والشرك كله، ويشعر بالتحام قوي يربط بين أعضاء هذه الأُسرة العظيمة، رغم الفترات الزمنية والمسافات المكانية المتباعدة، وبذلك فإنّ الشعور بوحدة المصير سوف يقوى في نفسه ويتعمق، فيمنحه إحساساً بالقوة والاعتزاز بالله.

فهو ليس وحده في هذه المعركة الضاريةَ، وإنما هو امة مؤمنة عريقة في التاريخ، وممتدة على كل وجه الأرض، تستعين بالله الواحد القهار في إرساء قواعد هذه الدعوة وتعبيد الناس لله تعالى، وتحكيم هذا الدين في حياة الناس، وإزالة كافة العقبات عن طريق الدعوة هذا.

إن هذا الإحساس بمعية الله ومعية المؤمنين سيزيل الشعور بالوحشة والإنفراد عن نفوس الدعاة إلى الله في خضّم الصراع مع الطاغوت ومواجهة شوكته وجبروته وكبريائه.

لقد كان إبراهيم عليه السلام وحده أمة، قانتاً لله في مواجهة نمرود.

قال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦٠].

مشاهد الولاء في زيارة وارث

في هذه الزيارة ثلاث مشاهد للولاء، هي:

١ ـ **التسليم**: وهو قوله «السلام عليك ياوارث ادم صفوة الله».

٢ ـ **الشهادة**: وهو قوله «اشهد أنك الإمام البر التقي الرضي».

٣ ـ **الموقف**: وهو قوله «قلبي لقلبكم سلم وأمري لأمركم متبع».

وضمن هذه المراحل الثلاثة يعبر الزائر عن ولائه للحسين عليه السلام في المعركة الكبرى التي وقف فيها أبو عبد الله في مواجهة طاغية عصره.

وسنستعرض فيما يلي هذه المشاهد الثلاثة للولاء في زيارة وارث.

المشهد الأول: التسليم

وهو أول مشاهد الولاء، ويكون ضمن ثلاث فقرات:

الأولى: (السلام عليك ياوارث آدم صفوة الله).

الثانية: (السلام عليك يابن محمد المصطفى).

الثالثة: (السلام عليك ياثار الله وابن ثاره).

والتسليم من عناصر الولاء، وهو: ترك المشاكسة والمشاققة والاختلاف واللجاج والعناد داخل النفس وعلى صعيد السلوك.

في داخل النفس يعني: إزالة عوامل البغضاء والكراهية والضغينة

والاختلاف في الرأي عن النفس، وإحلال المحبة والمودة والإِنسجام النفسي محلها، وعلى صعيد السلوك: ترك المخالفة والمشاكسة واللّجاج والعناد والشقاق، ومعنى ذلك هو الطاعة والانقياد والتسليم.

إلاّ أن هذه الطاعة نابعة عن انسجام نفسي ومحبة ومودة، وليست طاعة نابعة عن الإجبار والإكراه.

وكما أن التسليم أساس العلاقة بين الأُمّة والأمام كذلك هو أساس العلاقة بين الأُمّة نفسها. وقد جعل الله تعالى السلام تحيّة بين المؤمنين وجعل هذه التحيّة مسك الختام في صلاتهم كل يوم خمس مرات.

وهذا الاهتمام بنشر السلام بين أعضاء هذه الأُسرة جاء للتأكيد على نوع العلاقة القائمة بين أفراد وأعضاء الأُمّة المسلمة، وان هذه العلاقة قائمة على ترك المشاققة والمخالفة والتقاطع، وعلى إزالة البغضاء والضغائن والكراهية من النفوس، وعلى إحلال المحبة والمودة في النفوس، وعلى الانسجام، والوفاق، والتعاون، والتناصر في السلوك.

المشهد الثاني: الشهادة

والشهادة هي إعلان الإِيمان والارتباط بالولاية، وهي تأتي ضمن ثلاث فقرات:

١ ـ الشهادة برسالة الحسين(عليه السلام) وقضيته وعمله:

«أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وأطعت الله ورسوله حتى أتاك اليقين».

و(إقامة الصلاة) هنا غير أداء الصلاة، إن أداء الصلاة تكليف شخصي وفريضة شخصية وإقامة الصلاة رسالة وقضية في حياة الإنسان المؤمن.

إن إقامة الصلاة هي تثبيت الصلاة، ودعوة الناس إلى إقامة الصلاة لله على وجه الأرض. ثم (وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر) فلم يكن الحسين(عليه السلام) يبتغي في خروجه على يزيد ملكاً أو سلطاناً أو جاهاً، وإنما كان يعمل لتثبيت دعائم المعروف، وهدم أسس المنكر، وإقامة محور الولاية لله وهدم محور الطاغوت.

وقد خطب الحسين(عليه السلام) يوم عاشوراء فقال: «ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، والى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، إني لأرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما»[٦١].

وفي منزل (البيضة) خطب الحسين(عليه السلام) في أصحاب الحر فقال: «ياأيها الناس إن رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلا لحرام الله، ناكثاً عهده، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم

والعدوان، فلم يُغيِّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا عبادة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله»[٦٢].

فلم يكن الحسين(عليه السلام) يطلب سلطاناً أو مالاً ـ وهو يرى أنه يستقبل الموت في سفره هذا ـ وإنما كان يرى حاكماً جائراً يفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل، ويحلل حرام الله، ويتجاوز حدود الله...

فنهض الحسين(عليه السلام) بالعصبة المؤمنة التي احتفّت به في كربلاء لفضح الطاغية، وكسره، والتشهير به، وتوعية الرأي العام الإسلامي المضلل بحقيقته وإفساده في الأرض، ولتسقيطه، وانتزاع الأُمّة من سلطانه وإعادتها إلى محور الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

٢ ـ الشهادة بالطهر والنزاهة للحسين(عليه السلام):

النزاهة من كل إثم وذنب، والعصمة من كل خطأ وزلل وعصيان. والشهادة بطهارة نفسه وسلوكه(عليه السلام)، تلك الطهارة التي أهّلت أهل هذا البيت الطاهر لاستلام مسؤولية الإمامة والولاية من الله تعالى في عباده.

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٦٣].

والشهادة بأنّ هذه النزاهة وهذا الطهر موروث خلفاً عن سلف. وقد شاء الله تعالى أن يحتفظ بهذا الطهر في هذه السلالة الطيبة، عبر تاريخ طويل من الحضارات الجاهلية التي سادت حياة الإنسان. ورغم تلك الظلمات (الحضارات الجاهلية)، فإنّ هذا النور الإلهي استمر في حياة الإنسان، واستمر هذا الطهر رغم أنجاس الجاهلية، ودون أن يتلوث، ويلبس شيئاً من مدلهمّات ثيابها.

وقد اصطفى الله تعالى هذه السلالة المباركة للإمامة في حياة الإنسان عبر العصور المختلفة.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[٦٤].

ولنقرأ هذه الفقرة من الشهادة في زيارة وارث:

«أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة، لم تُنَجِّسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها».

ولاأستطيع تجاوز هذه الفقرة دون أن أشير إلى جمال التعبير في هذه الفقرة، فإنّ الطهر في هذا البيت الطاهر حصيلة اللقاح بين أصلاب شامخة وأرحام مطهرة، أصلاب شمخت وترفعت عما يتساقط حوله

الناس من متاع الحياة الدنيا وزخرفها، وأرحام طهرت وسلمت من أوضار وأوساخ وأدناس الحضارات الجاهلية التي تناوبت على حياة الإنسان.

٣ ـ الشهادة بموقع الحسين(ع) من حياة الأُمّة:

ومركزه القيادي الذي وضعه الله فيه، وما آتاه الله تعالى من الإمامة والولاية على المسلمين، والشهادة بموقعه في قيادة الأُمّة وهدايتها، وصلته بالله تعالى، وموقع ذريته الطاهرة في قيادة الأُمّة وإمامتها وهدايتها، إلى الله تعالى.

«أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المؤمنين، وأشهد أنك الإمام البر التقي الرضي، الزكي، الهادي، المهدي، وأشهد أن الأئمة من ولدك كلمة التقوى، وأعلام الهدى، والعروة الوثقى والحجة على أهل الدنيا».

المشهد الثالث: الموقف

وهو مرحلة التعبير عن (الموقف) في الولاء بعد (التسليم) و(الشهادة). و(الموقف) هنا يتجسّد في هذه الفقرة من النص: «إني بكم مؤمن، وبإيابكم موقن، بشرايع ديني وخواتيم عملي، وقلبي لقلبكم

سلم، وأمري لأمركم تبع».

وليس شيء أعز على الإنسان من شرائع دينه الذي يدين به لله تعالى، وخواتيم عمله الذي يختم به حياته، حيث لايمكن أن يتلافى منه شيئاً بعد؛ فإنّ من الممكن أن يتلافى الإنسان ما فرّط منه في بدايات عمله، وأواسطها بالتوبة، ومراجعة النفس، وتصحيح العمل. أمّا خواتيم العمل فهي التي تقرر عاقبة الإنسان ومصيره.

ثم إن هذا التسليم المطلق هو أسمى معاني (السلم)؛ لأنّه تسليم لا يشوبه شقاق، ولا يعكّره ريب في أعماق النفوس، تسليم القلب للقلب (وقلبي لقلبكم سلم)، فهو انسجام القلوب، وتلاقي القلوب، وتفاهم القلوب، وأمّا الموقف في (العمل) فيتجسد في كلمة (وأمري لأمركم متبّع) وهي التبعية المطلقة، والانقياد التام، وهو يعود إلى التسليم لأمر الله تعالى، والموقف هنا إيمان مطلق، وثقة مطلقة في النفس، ويستتبعه الالتزام الكامل والتبعية الكاملة في مقام العمل.

وورد أيضاً في زيارة الحسين عليه السلام الخاصة في يوم عرفة:

«أنا سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وعدو لمن عاداكم، وولي لمن والاكم إلى يوم القيامة».

وفي زيارة الأربعين الخاصة:

«أشهد إني مؤمن بكم وبإيابكم، موقن بشرائع ديني، وخواتيم عملي، وقلبي لقلبكم سلم، وأمري لأمركم متبع، ونصرتي لكم معدة، حتى يأذن الله... فمعكم معكم، لا مع عدوكم صلوات الله عليكم، وعلى أرواحكم، وأجسادكم، وشاهدكم وغائبكم».

فالزائر يقول هنا بأن النصرة معدة وجاهزة ينتظر فيها إذن الله تعالى، لا يبخل بنصرته عنكم وعن أوليائكم.

ثم بعد ذلك يأتي هذا النشيد الولائي الرائع، وهذه النغمة العذبة التي تحمل كل معاني الولاء الصادق: (فمعكم، معكم، لا مع عدوكم) ليؤكد الولاء من خلال تكرار المعية (فمعكم، معكم) ومن خلال الإيجاب والسلب، والولاء والبراءة (لا مع عدوكم).

وفي زيارة أول رجب المخصوصة تتردد هذه التلبية الولائية لداعي الله، الذي وقف يوم عاشوراء، يدعو الناس إلى الله ونبذ الطاغوت:

«لبيك ياداعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي».

وان أفضل التلبية هي تلبية القلب، فإذا فاتتنا تلبية داعي الله بأبداننا في كربلاء، فإنّ قلوبنا التي عمرها الله تعالى بولائه وولاء أوليائه لا تنفك عن تلبيته، والاستجابة لدعوته في مقارعة الظالمين، وتعبيد الناس لله، وانتزاع الإنسان من محور الطاغوت إلى محور الولاء لله تعالى.

البراءة الوجه الآخر للولاية

ثم يأتي ـ بعد ذلك ـ دور الوجه الآخر لهذه المسألة وهي البراءة، فلا ولاية من دون البراءة. وان الولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة، وشطران من حقيقة واحدة.

ويصدق الإنسان في ولائه بقدر ما يصدق في براءته؛ فإنّ الولاء وحده لا يكلف الإنسان كثيراً، وأكثر ما يصيب الإنسان من أذى وعناء إنما هو في أمر البراءة، وليس أيسر من أن يجامل الإنسان الجميع، ويمد يده إلى الجميع، ويعيش مع الكل بسلام، ويداري كل العواطف والأحاسيس، ويلعب على كل الحبال، ويتجنب الصدام بالجميع، ويوزع الابتسامة في كل مكان ليرضي الجميع. إن مثل هذا الإنسان يستطيع أن يعيش في رغد وعافية، ويستطيع أن يكسب ود الجميع وتعاطفهم، ويستطيع أن يعيش من دون مشاكل ومتاعب. ولكن لا يستطيع أن يرتبط بمحور الولاية الإلهية على وجه الأرض، ولا يستطيع أن ينتمي إلى هذه الأسرة المسلمة التي أعطت ولاءها لله ولرسوله ولأوليائه، ولا يستطيع أن يملك موقفاً، ولا يستطيع أن يحب لله ويبغض في الله ويرضى ويسخط بصدق برضى الله وسخطه. ولا يستطيع أن يتجاوز حدود المجاملة السياسية والاجتماعية في علاقاته.

إن الصدق في التعامل، والموقف من الأحداث، والقوة، والجدية، والصراحة في المواقف لا تتم من دون ولاء. والولاء لا يتم من دون براءة.

والبراءة تكلف الإنسان الكثير في علاقاته الاجتماعية وصلاته في المجتمع، وفي الأُسرة، وفي راحته، وعافيته، وفي استقراره.

إن البراءة ضريبة الولاء، والتعب والعناء والأذى ضريبة البراءة، وهذه معادلات أجراها الله تعالى بسنته التي لا تتبدل في حياة الإنسان.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «عشر من لقي الله عزّوجلّ بهن دخل الجنة:

١ ـ شهادة أن لا اله إلاّ الله.

٢ ـ وأن محمداً رسول الله.

٣ ـ والإقرار بما جاء من عند الله عزّوجل.

٤ ـ وإقام الصلاة.

٥ ـ وإيتاء الزكاة.

٦ ـ وصوم شهر رمضان.

٧ ـ وحج البيت.

٨ ـ والولاية لأولياء الله.

٩ ـ والبراءة من أعداء الله.

١٠ ـ واجتناب كل مسكر»[٦٥].

وقد ورد في رسالة رسول الله ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة: «واني أدعوك إلى الله وحده لا شريك لـه، والموالاة على طاعته، وان تتبعنـي، وتوقن بالذي جاءني، واني رسول الله».

وفي رسالته ﷺ إلى أسقف نجران: «إنـي أدعـوكم إلـى عبـادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلـى ولايـة الله مـن ولايـة العبـاد، وأن أبيـتم فالجزية، وان أبيتم آذنتكم بحرب»[٦٦].

فالفاصل بين الإسلام والكفر إذن هو الولاية والبراءة.

وعـن رسـول الله ﷺ: «إن أوثـق عـرى الإيمـان الحـب فـي الله، والبغض في الله، وتُوَلّي ولي الله، وتُعادي عدو الله»[٦٧].

وعن الرضا عليه السلام:

«روي أن الله أوحى إلى بعض عُبّاد بني إسـرائيل، وقـد دخـل قلبـه شيء: أمّا عبادتـك لـي فقـد تعـززت بـي، وأمّـا زهـدك فـي الـدنيا فقـد تعجّلت الراحة، فهل واليت لي ولياً وعاديت لي عدواً؟»[٦٨].

وروى أن رجلا قدم على أميرالمؤمنين عليه السلام، فقـال: يـا أميرالمـؤمنين إني أُحبّك وأُحبّ فلانـاً (وسـمى بعـض أعدائـه)، فقـال عليه السلام: «أمّـا الآن

فأنت أعور، فإمّا أن تعمى وإمّا أن تبصر»[٦٩].

ومثـل هـذا الـنمط مـن النـاس لا يبقـى أعـوراً إلـى الأخيـر بنصـف الرؤية، فإمّا أن يهديه الله تعالى فتكتمل لديه الرؤية وإمّـا أن يفقـد هـذه الرؤية النصفية الضعيفة، فيعمى ويفقد الولاء مطلقاً.

وقيل للصادق عليه السلام: إن فلاناً يواليكم إلاّ أنه يضعف عن البـراءة مـن عدوكم فقـال عليه السلام: «هيهـات كـذب مـن ادّعـى محبتنـا، ولـم يتبـرأ مـن عدونا»[٧٠].

والسـائل فـي هـذا الحـديث دقيـق فـي طـرح السـؤال: فالشـخص الذي هو موضوع السؤال لا يشك في ولائه، ولكنه يضعف عن البـراءة، وضعفه يجعل موقفه من البراءة مهزوزاً وضعيفاً ومتميعاً، ولايملك القوة الكافيـة مـن أن يعلـن موقفـه فـي الـولاء والبـراءة، والوصـل والفصـل، والارتبـاط والمقاطعـة، بشـكل صـريح وحاسـم، فيجيبـه الإمـام عليه السلام أن الولاء الصادق لايمكـن أن ينفصـل عـن البـراءة، ومـن يجـد فـي نفسـه ضعفاً عن البراءة فهو كاذب في ولائه.

وفي حديث الأعمش عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «حب أولياء الله واجب، والولاية لهم واجبة، والبراءة من أعدائهم واجبـة، والبـراءة مـن الناكثين والقاسطين والمارقين واجبـة، والبـراءة مـن الأنصـاب والأزلام

وأئمة الضلال وقادة الجور كلهم، أولهم وآخرهم واجبة»[٧١].

وعن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام عن أبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه ذات يوم: ياعبد الله أحببْ في الله، وأبغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنّه لاتنال ولاية الله إلاّ بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صَلاته وصيامه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادون، وعليها يتباغضون، وذلك لايغني عنهم من الله شيئاً.

فقال له: وكيف لي أن أعلم إني واليت وعاديت في الله عزّوجلّ؟ ومن ولي الله عزّوجلّ حتى أُواليه؟ ومن عدوه حتى أُعاديه؟

فأشار له رسول الله صلى الله عليه وآله إلى علي عليه السلام، فقال أترى هذا؟ فقال: بلى، قال: ولي هذا ولي الله فواله، وعدو هذا عدو الله فعاده، وقال: وال ولي هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعاد عدو هذا ولو أنه أبوك أو ولدك»[٧٢].

وهذا المضمون قد ورد بشكل آكد في حديث الغدير المعروف عن رسول الله صلى الله عليه وآله «من كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

وقد صَدَّرَ العلامة الأميني كتابه القيم (الغدير) بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المعنى نود أن نختم به أحاديث الولاء والبراءة في هذا الحديث.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من سرّه أن يحيى حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن عرفها ربي، فليوال علياً من بعدي، وليوال وليه، وليقتد بالأئمة من بعدي، فإنّهم عترتي، خلقوا من طينتي، رزقوا فهماً وعلماً. وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي».

الطوائف الملعونة في زيارة وارث

هذا، وقد ورد اللعن والبراءة في زيارة وارث لثلاث أمم وطوائف:

(فلعن الله أمة قتلتك)

(ولعن الله أمة ظلمتك)

(ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به)[٧٣].

١ـ الطائفة الأُولى:

هي الطائفة التي باشرت قتال الحسين عليه السلام (لعن الله أمة أسرجت وألجمت وتهيأت وتنقبّت لقتالك يامولاي يا أبا عبد الله)[٧٤].

٢. الطائفة الثانية:

هي الطائفة التي ظلمت الحسين عليه السلام وجارت عليه ومكّنت منه، وشايعت، وبايعت، وظاهرت عليه، وخالفته... وهذه الطائفة تشمل كل أُولئك الذين أعدوا لقتال الحسين عليه السلام، أو مَكَّنوا منه، أو خالفوه، أو ظاهروا عليه، أو ساهموا في الإعداد لقتله، أو أعانوا الطاغية في قتال سيد الشهداء بنحو من الأنحاء، وأشياع هؤلاء جميعاً وأتباعهم.

وقد ورد اللعن والبراءة عن هذه الطائفة، (وهي طائفة واسعة) بصيغ مختلفة في زيارات الحسين عليه السلام المطلقة والمخصوصة، ففي زيارة عاشوراء المخصوصة: «فلعن الله أمة أسست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت، ولعن الله أمة دفعتكم عن مقامكم، وأزالتكم عن مراتبكم التي رتبكم الله فيها... (ولعن الله أمة قتلتكم) ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين من قتالكم، برئت إلى الله واليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم».

وكما نرى أن هذه طائفة واسعة تشمل كل أُولئك الذين ساهموا في قتال الحسين، أو مكنوا من قتاله، أو أعدوا له، أو بايعوا الطاغية على قتاله، أو شايعوا وظاهروا عليه، وأشياعهم وأتباعهم.

٣. الطائفة الثالثة:

هي الطائفة التي سمعت بذلك فرضيت به.

وهذه الطائفة تستوقف الإنسان طويلا، فَمَن هُم أُولئك الذين سمعوا بذلك فرضوا به؟ إن هذه الطائفة ليست بالتأكيد مشاركة في القتال، ولا هي مشاركة في ممارسة الظلم بصورة عملية، وإلاّ لكانت تدخل ضمن الطائفة الأولى والثانية، ولم يكن من موجب لأفرادها بالذكر ثالثاً، فهذه الطائفة لابدّ وأن تكون ـ إذن ـ ممن سمعوا استنصار الحسين عليه السلام و لم ينصروه، وآثروا العافية على الوقوف بجانب سيد الشهداء عليه السلام، في معركة الطف، وخذلوا سيد الشهداء عليه السلام، ولم ينصروه يوم عاشوراء... وهذه الطائفة لابدّ أن تكون راضية بما حدث في يوم عاشوراء، فلا يمكن أن يتم هذا الخذلان والسكوت والقعود عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في معركته مع طاغوت عصره، والقعود بعد ذلك عن أخذ ثاره لولا أنهم كانوا راضين بما حدث.

فإنّ تخلف هؤلاء عن الالتحاق بالحسين عليه السلام، وتقاعسهم عن نصرة الحسين، وإيثارهم للعافية في دنياهم على آخرتهم ينطوي على الرضا بما صنع يزيد... وان لم يكن كذلك فإنّ مثل هذا التخلف والتقاعس وإيثار العافية يؤدي أخيراً إلى الرضا بالظلم.

وقد ذُكرت هذه الطائفة في نصوص أخرى للزيارة بصيغ مختلفة، كلها تصب في معنى التخاذل عن نصرة أبي عبد الله عليه السلام، والتقاعس عن الالتحاق به، وإيثار العافية على الوقوف إلى جانب سيد الشهداء عليه السلام، فقد ورد في الزيارة المطلقة الثانية:

«لعنت أمة قتلتكم وأمة خالفتكم، وأمة جحدت ولايتكم، وأمة ظاهرت عليكم، وأمة شهدت ولم تستشهد».

وورد في الزيارة المطلقة السابعة: «وأشهد أن قاتلك في النار، أدين لله بالبراءة ممن قتلك، وممن قاتلك، وشايع عليك، وممن جمع عليك، وممن سمع صوتك ولم يعنك».

وموضع الشاهد: «وممن سمع صوتك ولم يعنك».

وورد في زيارة ليلة القدر وليلة العيدين:

«أشهد أن الذين خالفوك، وحاربوك، والذين خذلوك، والذين قتلوك ملعونون على لسان النبي الأُمّي».

فالذين سمعوا صرخة الحسين عليه السلام في وجه يزيد، وسمعوا نداءَه عليه السلام، وهو يستنصر المسلمين، وخذلوا سيّد شباب أهل الجنة، وآثروا عافية دنياهم على سلامة الآخرة، وتخلفوا عن الالتحاق بالحسين عليه السلام، أُولئك من أهل البراءة في هذا النص.

أجل، إن معركة الطف كانت معركة حقيقية في الأبعاد العقائدية والحضارية والسياسية. ولذلك فهي تتطلب مواقف حقيقية من الولاء والبراءة، وترفض موقف المتفرج واللامبالاة، اليوم، كما كانت ترفضه بالأمس، ولا تفصل المواقف المتفرجة من الموقف المعادي.

يوم الفرقان الأول

وهذه الخاصية يسميها القرآن الكريم بالفرقان، وهو الأمر الذي يشطر الناس شطرين متميزين في الولاء والبراءة.

ولقد كان يوم بدر هو (يوم الفرقان الأول) في تاريخ الإسلام، يقول تعالى: ﴿**يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾[٧٥].

وذلك لان هذا اليوم الذي التقى فيه المسلمون بالمشركين في مواجهة عسكرية، شطر الناس شطرين متمايزين في الولاء والبراءة، فهو أول مواجهة قتالية بين التوحيد والشرك في تاريخ الإسلام، وعلى نتائج هذه الحرب الميدانية كان يتوقف مصير البشرية جميعاً واتجاه الحضارة الإنسانية.

صحيح أن الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في بدر هم ثلاثمائة أو يزيدون، وإن الذين وقفوا إلى جانب قريش لقتال رسول الله ألف أو يزيدون قليلا، إلاّ أن هذه المواجهة كانت أعمق وأوسع مما يتراءى لنا

لأول مرة، من خلال التاريخ، في وادي بدر، في السنة الثانية من الهجرة.

لقد كان تقف من وراء المشركين من قريش في بدر جبهة عريضة من الشرك في الجزيرة وخارجها، وتصاعد الأحداث بعد هذا اليوم أثبت هذه الحقيقة. ولقد وقف رسول الله ﷺ بهذه العصابة الصغيرة أمام جبهة الشرك العريضة كلها. فيوم بدر ـ إذن ـ فَرَّق البشرية إلى شطرين متمايزين في الولاء: شطر قوامه ثلاثمائة مقاتل وخمسة مقاتلين، وشطر آخر قوامه جبهة الشرك العريضة وبكل إمكاناتها الواسعة.

إِن النظرة الساذجة الأُولى لساحة بدر في السنة الثانية من الهجرة لا تلتقي إلاّ بهذين الجمعين المتقاتلين، ولكن النظرة العميقة الممعنة تلتقي في هذه الساحة بحضارتين وعقيدتين تتصارعان على الوجود، وليس على حفنة من تجارة قريش، وتلتقي بجبهات عريضة وواسعة، وليس من ألف من المقاتلين أو يزيدون على ذلك.

ولم يكن يوم بدر هو يوم الفرقان الذي شطر الناس في الولاء والبراءة إلى شطرين في السنة الثانية من الهجرة فقط، وإِنما ظل يوم بدر هو يوم الفرقان في تاريخ الإسلام.

يوم الفرقان الثاني:

وإذا كان (يوم بدر) هو (يوم الفرقان الأول) في تاريخ الإسلام، فإنّ (يوم عاشوراء) هو (يوم الفرقان الثاني) في تاريخ الإسلام[٧٦].

وقف فيه الحسين عليه السلام مع ثلة صغيرة من أهل بيته وأصحابه إلى جانب في هذه المعركة المصيرية، ووقف ابن زياد في جيش واسع في الطرف الآخر من المعركة، ومن ورائه يزيد وسلطانه، وملكه الواسع، وأمواله الكثيرة، وجيشه وإمكاناته، وكل الموالين له، وكل المستفيدين منه، وكل المضللين به، وكل المقاتلين معه، وكل المتفرجين على الساحة السياسية من الذين آثروا العافية، وانتظروا النتيجة، ممن وقفوا يتفرجون على ساحة الصراع و ميدان القتال، وكل أشياع هؤلاء وأتباعهم.

ففي يوم عاشوراء إذن تتوفر خاصية (الفرقان) بشكل واضح، فقد شطر الناس إلى شطرين متمايزين في الولاء والأخلاق والفكر والخط والعقيدة.

ولا يزال هذا اليوم (فرقاناً) في تاريخ الإسلام يُفرّق الناس في الولاء والبراءة إلى اليوم الحاضر، والى ماشاء الله من العصور.

يوم الفرقان الثالث:

وما دمنا قد أشرنا إلى يومين من أيام الفرقان في التاريخ الإسلامي هما (يوم بدر) و(يوم عاشوراء)، فلا نستطيع أن نتجاوز هذا الحديث دون أن نشير إلى اليوم الثالث من أيام الفرقان في التاريخ الإسلامي، والذي يأتي امتداداً ليوم بدر ويوم عاشوراء.

وهو يوم (انتصار الثورة الإسلامية المعاصرة) سنة ١٣٩٩ هـ والذي هو من أيام الله الكبرى في التاريخ، والذي سقط فيه نظام بهلوي وانتصرت فيه الثورة الإسلامية المعاصرة الكبرى بقيادة الإمام الخميني رحمه الله.

إن هذا اليوم لا يعني فقط سقوط نظام أُسرة بهلوي في تاريخ إيران، وإنما يعني انتهاء مرحلة من تاريخ الإسلام وبداية مرحلة جديدة من التاريخ.

فإنّ القيمة التاريخية لسقوط أُسرة بهلوي وقيام الجمهورية الإسلامية تكمن في كونه:

أولاً ـ نهاية لعصر من الخمول والركود والاستضعاف واليأس، والارتماء في أحضان الغرب والشرق، والتخلف الفكري والسياسي

والعسكري والاقتصادي، والرضوخ لسيادة الاستكبار العالمي، والهزيمة النفسية أمام موجة الحضارة الغربية.

ثانياً ـ بداية عصر جديد من التحرك باتجاه الإسلام، وحاكمية دين الله على وجه الأرض، وفك القيود والأغلال من الأيدي والأقدام، وكسر الطوق السياسي والاقتصادي والعسكري والعلمي والحضاري الذي فرضه علينا الاستكبار الغربي والشرقي، والعودة إلى الله وإلى الإسلام، وتعبيد الإنسان لله، وتحكيم شريعة الله في حياة الإنسان، وإعادة الأعراف والقيم والأخلاق والحدود الإسلامية إلى صلب الحياة من جديد. وبالإجمال فإنّه بداية لمرحلة جديدة للتاريخ.

هذا اليوم ـ إذن ـ هو امتداد حقيقي ليوم عاشوراء، كما كان يوم عاشوراء امتداداً واقعياً ليوم بدر، وهو يوم مصيري في تاريخ الإسلام وللأجيال المقبلة، كما كان يوم عاشوراء يوماً مصيرياً في تاريخ الإسلام، وكما كان يوم بدر يوماً مصيرياً في تاريخ الإسلام.

ونلخص فيما يلي أبرز النقاط والعناصر التي تُكوِّن القيمة الحضارية للثورة الإسلامية الشاملة:

القيمة الحضارية للثورة الإسلامية

١ ـ هذه الثورة ثورة مبدئية بكل معنى الكلمة:

وهي نوع جديد من العمل والحركة الثورية في تاريخنا المعاصر، وفي الأجواء السياسية المعاصرة التي لم تألف هذا النوع من العمل والحركة، فهي ثورة التوحيد على الشرك، بالمعنى الذي فسرناه في هذا الحديث، وهو التوحيد في الولاء؛ فهي تتجه إلى فك ارتباط الإنسان المسلم عن الطاغوت المتمثل في الاستكبار الشرقي والغربي وعملائه في المنطقة. هذا الارتباط الذي يتمثل في الطاعة والانقياد والاستسلام والركون إلى الظالمين وحبه ونصرته، وفك ارتباطه بمحاور الولاء المصطنعة (القومية، الوطنية، العشائرية، الحزبية...)، وربط ولائه بالله تعالى ورسوله وأوليائه، وتوحيد الولاء لله تعالى، ومقاطعة ومحاربة كل المحاور الأخرى التي تعمل لانتزاع الولاء من الناس، تلك طبيعة الثورة ومحتواها.

ومن هنا فإنّها كانت ثورة العبودية لله على عبودية الطاغوت.

وان من المهم أن نفهم نحن مسار الثورة الإسلامية المعاصرة ومحتواها، ومن دون ذلك لا نستطيع أن نساهم في دعم وإسناد هذه الثورة.

إنها ليست ثورة على التخلف العلمي والتقني، ولا هي ثورة على التخلف الاقتصادي والفقر، ولا هي ثورة على الاستعمار والاستغلال، ولا هي ثورة من أجل تحرير آبار النفط من قبضة ملوك النفط، ولا هي ثورة طبقة على طبقة أخرى (ثورة طبقية)، ولاهي ثورة المستضعفين على المستكبرين، كما حدث في ثورة الزنج في تاريخ الإسلام. وان كانت تحتوي على هذه الأمور جميعاً بصورتها الصحيحة، وتحقق هذه النتائج كلها. وإنما هي في جوهرها شيء آخر؛ إذ أنها ثورة الولاء لله على المحاور المصطنعة للولاء، وثورة التوحيد على الشرك، بالمعنى الذي شرحناه للتوحيد والشرك.

وهذه الثورة إذا حققت غايتها على وجه الأرض فلسوف تقضي على التخلف العلمي والثقافي والتقني، وتقضي على الفقر والتخلف الاقتصادي، وتقضي على الاستغلال والاستعمار... بالتأكيد.

وتقضي على استثمار آبار النفط من قبل الشركات الاستعمارية، وتقضي على التلاعب بأموال المسلمين وثرواتهم، وتقضي على الاستضعاف والاستكبار، وعلى استضعاف طبقة من قبل طبقة أخرى، وممارسة السيادة لطبقة على أخرى.

إن هذه الثورة سوف تحقق كل هذه الغايات، وتحقق غايات

أخرى أبعد من هذه الأمور وأسمى منها. ولكن على أن تحافظ على جوهرها ومحتواها الحقيقي، فتبقى ثورة التوحيد على الشرك، ولا تندفع إلى الغايات الفرعية التي تتفرع عنها.

إن السمة البارزة والأُولى لهذه الثورة هي (الربانية) وهذه السمة هي التي تربطها ببدر وصفين وعاشوراء، وبحركة الأنبياءعليهم السلام وبمسار الصالحين من أولياء الله. ومتى أُفرغت الثورة من هذه السمة، وتشبّعت بالأهداف والشعارات الجانبية فقدت كل قيمتها وفقدت تأييد الله تعالى لها أيضاً.

إن هذه الثورة تختلف اختلافاً جوهرياً عن كل الثورات المعاصرة لنا، كالثورة الفرنسية، وثورة أكتوبر، والثورات التي قامت في القارة الإفريقية، وفي آسيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم الحاضر.

حيث أن هذه الثورات جميعاً ـ في أفضل الفروض ـ كانت ذات صفة طبقية (ثورة طبقة على طبقة) أو صفة تحررية (التحرر من نفوذ وسيطرة الاستعمار الأجنبي، أو التحرر من سيطرة حاكم ظالم). ولا نستطيع أن نستثني ثورة معاصرة عن هذه المنطلقات.

أمّا الثورة الإسلامية فهي الثورة الوحيدة التي انطلقت من منطلق آخر يختلف اختلافاً نوعياً عنها جميعاً؛ إِنّها انطلقت لتحرير الإنسان من

المحاور البشرية للولاء، وتعبيد الإنسان لله تعالى، وتحكيم شريعته في حياة الإنسان، وترسيخ محور الولاية الإلهية بكل امتداداتها في حياة الإنسان.

٢ ـ إن هذه الثورة حصيلة جهود كثيرة وكبيرة:

من قبل كل العاملين في سبيل الله والمجاهدين وطلائع العمل الإسلامي من الذين وعوا محنة تخلف الأُمّة، وتحملوا المسؤولية، ونهضوا بأعباء المسؤولية، وتقبلوا كل المتاعب التي واجهتهم على طريق ذات الشوكة... إِن هؤلاء جميعاً وفي عصرنا وقبل هذا العصر، لهم دور في بناء قواعد هذه الثورة المباركة، وفي إِنجاز هذه الحركة الربانية على وجه الأرض، وفي تحريك هذا السيل البشري الهادر الذي زعزع أركان الطاغوت.

إِنّ الطالب الذي كان يدعو إلى الله ورسوله لتحكيم شريعة الله بين زملائه الطلبة له دور في بناء هذه الثورة، والعامل الذي كان يسعى بهذا الاتجاه له دور في هذه الثورة، والخطيب الذي كان يخطب في المساجد والاجتماعات وينشر هدى الإسلام ووعيه له دور في هذه الثورة، والعالم، والكاتب، والشاعر، والأديب، والمعلم من النساء والرجال... وكل حملة الرسالة في مشارق الأرض ومغاربها لهم دور

في بناء هذه الثورة المباركة.

هذه الثورة الجبّارة لـم تكـن حصـيلة فتـرة زمنيـة محـدودة، وجهـد جماعة من العاملين والمجاهدين، وإنما حصيلة أجيـال مـن العمـل فـي سبيل الله من قبل كل العاملين في حقول العمل الإسلامي... كما كانـت هـذه الثـورة حصـيلة كـل الآلام، والحرمـان، والاضـطهاد، والعـذاب، والعناء الذي لاقاه المسلمون في مرحلة الركود والضـعف. وسـاهم فـي الثورة كل من أُضـطهد فـي سـبيل الله، وكـل مـن التفّـت السـياط علـى جسمه في غياهب السجون، وكل الدموع، وكل الدماء، وكل الآهـات، وكل الهجرات التي كانت في سبيل الله.

أجل إن هذه الثورة كانت انفجاراً هائلا لكـل تلـك الآلام والمحـن. ولو كان الأمر في هذه الثورة الإسلامية يقتصر على العامل الثاني (ركام الآلام والعذاب) لكان مـن الممكـن أن تغلـب علـى هـذه الثـورة صـفة الغوغائيــة والانفعــال. إلاّ أن وجــود العامــل الأول (المبدئيــة) وقوتــه وفاعليته في تحقيق هذه الثـورة المباركـة كـان عـاملا قويـاً فـي توجيـه الثورة، وتصحيح مسارها، والمحافظة عليها من الانحراف.

لقد كان الفعل الهادف الذي تم خلال هذه المدة من قبـل العـاملين في سبيل الله يصب في مصب خط الإسـلام النقـي وهـو الخـط الفقهـي

الذي تجسد في قيادة الإمام الخميني، والذي عرف فيما بعـد بخـط الإمام.

لقد كان هناك بالتأكيد خطوط انحرافية في العمـل الإسـلامي، عـن يمـين ويسـار، ولكـن هـذه الخطـوط لـم تكـن تشـكل تيـار الحركـة الإسلامية القوية.

وقد علّمتنا التجارب أن اعتماد الخط الفقهي في الحركة الإسـلامية هو أفضل ما يحمي الحركة من انحرافات اليمين واليسار.

ومهما كان من أمر فإنّ هذه الثورة كانت حصيلة كل هـذه الجهـود والآلام، ولقـد سـاهم فـي بنائهـا كـل أُولئـك العـاملين والمحـرومين والمعـذبين فـي سـبيل الله. ولهـذا السـبب بالـذات فـإنّ لهـؤلاء العـاملين والمعذبين والمحرومين علاقة عضوية قوية بهـذه الثـورة، سـواء عاشـوا في إيران أم في العراق أم في جزر أندونيسيا أم في أعماق أفريقيا.

فإنّ هذه الثورة لهؤلاء جميعاً، وعلى هؤلاء جميعـاً المحافظـة علـى هذه الثـورة وحمايتهـا. فقـد واجهـت الثـورة مـؤامرات رهيبـة مـن قبـل الاسـتكبار العـالمي الشـرقي والغربـي، وسـوف تسـتمر هـذه المواجهـة وتـدوم... ومسـؤولية المحافظـة علـى هـذه الثـورة لاتقتصـر فقـط علـى الشعب الإيراني الذي فجر الثورة، وإنما تعم المسؤولية كـل أبنـاء هـذه

الثورة وبُناتها المساهمين فيها.

وقد يكون من هذا الشعب من يعمل لإحباط هذه الثورة والإجهاز عليها، وينهض رجال مؤمنون من غير هذا الشعب لإحباط المؤامرات ـ التي تحاك حول هذه الثورة ـ وللدفاع عنها، فليست هذه الثورة ثورة إقليم، كما يحاول أعداء الإسلام أن يبرزوها، وكما تنطلي أحياناً على بعض السذّج من المسلمين، وليست ثورة إسلامية إيرانية، وإنما هي ثورة إسلامية شاملة وعميقة، وشاء الله تعالى أن تكون نقطة انفجارها في أرض إيران، وأن يكون الشعب الذي يفجرها هو الشعب الإيراني المسلم.

فأيّة محاولة لأقلمة هذه الثورة وعزلها عن مشاعر وأحاسيس وقلوب المسلمين، هي خيانة لهذه الثورة إن كانت من قبل أعداء هذه الأُمّة والمتربصين بها السوء، وهي سذاجة وجهل إن كانت من قبل أبناء هذه الأُمّة، ومن وراء هذه السذاجة خيانة. والغاية من هذه الخيانة عزل الثورة الإسلامية عن مشاعر المسلمين، وعن الرأي العام الإسلامي وتطويقها مقدمة للإجهاز عليها.

وعلينا نحن المسلمين أن نواجه هذه المؤامرة بوعي وانتباه، وبعيداً عن جو الحسّاسيات، وفي جو من المسؤولية الشرعية.

وكل الثورات التي تحدث في ما بعد في أقطار العالم الإسلامي، وباتجاه هذا الخط الرباني، تشكل مراحل مختلفة لثورة واحدة وشاملة، وهي ليست ثورات أخرى في قبال هذه الثورة، ولا امتداداً لهذه الثورة، وإنما هي مراحل مختلفة لثورة واحدة شاملة، وقد شاء الله تعالى أن تتم المرحلة الأولى منها في إيران، وفي أحضان هذا الشعب المسلم المضحّي الشّجاع.

أرأيت خط الزلزال و الهزات الأرضية التي تنطلق من منطقة وتمتد على منطقة واسعة من الأرض بفعل التفاعلات الجيولوجية غير المرئية لنا في عمق الأرض؟ كذلك كانت هذه الثورة.

لقد تم في عمق هذه الأُمّة تفاعلات واسعة وكبيرة وقوية بتأثير الفعل (العامل الأول) والانفعال (العامل الثاني) في غياب من رصد الاستكبار العالمي، وحين كان الاستكبار العالمي يزهو بانتصاراته الكبيرة على العالم الإسلامي، ويعيش في نشوة سلطانه وسيطرته على العالم الإسلامي... جرت هذه الانفعالات في أعماق الأُمّة الإسلامية وتفاعلت وتفاقمت، ثم كان الزلزال الذي هز الأرض من تحت أقدام حكام البيت الأبيض والكرملين والاليزيه... ولم ينتبه هؤلاء الطغاة من نشوة وسكر السلطان إلاّ بعد أن حدث الزلزال... وكانت نقطة البداية.

إلاّ أن خط الزلزال خط طويل وممتد، ولم ينقطع هذا الزلزال الحضاري الكبير، وإنما يمتد من طهران إلى بغداد إلى القدس إلى ماشاء الله من أقطار وأقاليم العالم الإسلامي.

إن الذي حدث في إيران كان شيئاً أكبر بكثير من تصوراتنا السياسية المحدودة، وكان تحقيقاً لوعد الله سبحانه وتعالى للصالحين المستضعفين من عباده في هذه الأُمّة: **﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾**[77].

إنّ من يعرف طبيعة وجذور وأعماق هذه الثورة يعرف جيداً أن هذه الثورة لاتعترف بالحدود الإقليمية والقومية، وإنها لا تقف من وراء الحدود، تستأذن سدنة هذه الحدود ليفتحوا لها الطريق. إنها السيل والموج العارم لايستأذن ولايقف، ولايعترف بالحدود، ولاينتظر، ولايتردد.

ووعي هذه الحقائق ضروري في حماية ودعم الثورة، كما أن تضبيب أفق الثورة بالحسّاسيات يساعد في الخط العكسي الذي تعمل عليه العقول المخططة للاستكبار العالمي.

ونحن نضع هذه الحقائق عن هذه الثورة بين يدي هذه الأُمّة

المؤمنة ومفكريها وقادتها وعلمائها والعاملين في صفوفها، وضميرها الحر الواعي المستنير، ليتحملوا مسؤوليتهم عن هذه الثورة بين يدي الله تعالى:

حقائق عن الثورة الإسلامية :

١ـ إن هذه الثورة من أيام الفرقان في تاريخ الإسلام:

شطرت الناس تجاهها شطرين، شطر الموالين وشطر المعادين.

ولكن، ليس للثورة ولاء جديد في قبال الولاء لله ولرسوله ولأوليائه، وإنما ولاؤها هو في امتداد الولاء لله.

إن هذه الثورة كانت من الأحداث القليلة النادرة في التاريخ التي لم تسمح للإنسان أن يقف منها موقف المتفرج واللامبالاة، وإنما تتطلب الموقف من كل الناس، وتفرض الموقف على كل الناس، لها أو عليها.

ومنذ أيام بزوغ هذه الثورة ومنذ أن اندلع لهيبها من طهران وجدنا كل القلوب المؤمنة والضمائر الحيّة المؤمنة قد تجمّعت حول هذه الثورة وتعاطفت معها، من أقصى الجنوب في جزر إندونيسيا إلى أقصى الشمال من آسيا الوسطى والبلاد التي كان يحتلها الاتحاد

السوفيتي، ومن أقصى شرق آسيا إلى أقصى المغرب الإفريقي.

لقد تجمعت كل العواطف والأحاسيس والمشاعر الصادقة المؤمنة في هذه الرقعة الواسعة من الأرض حول هذه الثورة المباركة، وكانت تعيش باهتمام بالغ ساعات ميلاد هذه الدولة المباركة، وحبس التاريخ أنفاسه ليتابع لحظات هذا الميلاد السعيد، لحظات (عودة الحضارة الربانية) و(عودة سيادة الإسلام على وجه الأرض) و(حاكمية الله في حياة الإنسان) بعد تلك السنوات العجاف، من الركود، والخمول، والضعف، و الهزائم النفسية، والانصهار المذل في حضارة الاستكبار الشرقي والاستكبار الغربي الجاهلي، ونفوذ وسيطرة الكفر العالمي على أُمتنا وبلادنا وثرواتنا.

وفي مقابل ذلك، فقد أحسّ كل الظالمين والعتاة والجلادين والذين باعوا دينهم وضمائرهم، وكل الطغاة والجبارين في الأرض... كل أُولئك أحسّوا بالشر وأحسّوا بالخطر، وأحسوا بأن هناك حدثاً جديداً في طهران، وان الذي يجري في ليس أمراً كسائر الأمور التي تجري هنا وهناك... انه نهاية لمرحلة وبداية لمرحلة، ونهاية لحضارة وبداية لحضارة.

لقد أحسّ هؤلاء بالشر، وبالخطر يفاجؤهم على حين غفلة، فأعلنوا

عداءهم تجاه الثورة منذ اللحظات الأولى، ولم يخفوا حساسيتهم وتخوفهم من هذه الثورة من ساعاتها الأولى... لقد كان إحساسهم بالخطر إحساساً مبكّراً حقّاً.

لقد أُستقبلت الثورة من قبل طائفتين من الناس طائفة استقبلتها بقلوب ملؤها العطف، ومفعمة بالحب، والإقبال، والاندفاع لنصر الثورة، والدعاء إلى الله بتأييد الثورة. وطائفة أخرى استقبلتها بقلوب حاقدة متخوّفة ومتحسّسة، لم تتمكن من إخفاء تخوفاتها وحسّاسيتها، حتى منذ الساعات الأولى لميلاد هذه الدولة المباركة وانتصار الثورة.

وهذا الانشطار في الولاء والبراءة من خصائص أيام الفرقان في التاريخ، ولسوف تبقى هذه الثورة بإذن الله، تحتفظ بهذه الخاصية المزدوجة في مراحلها المختلفة.

٢ـ انتصار هذه الثورة ايذانٌ بصراع بين الإسلام والجاهلية:

لقد كان من الطبيعي أن يكون ميلاد هذه الدولة المباركة وانتصار هذه الثورة إيذاناً بصراع ممتد طويل بين الإسلام والجاهلية...

فلقد كانت هذه الثورة تمتد لإسقاط معاقل الجاهلية والاستكبار على وجه الأرض، وإطلاق أيدي المستضعفين من الأغلال والقيود، وفك الأغلال عنهم، وكسر هيبة القوى الكبرى في نفوس المسلمين.

ولهذا فلا يمكن أن يسكت الاستكبار العالمي أمام هذه الحركة الربانية دون إثارة الفتن والمتاعب في طريق الدعوة والثورة، ودون أن يعمل على تطويق ومصادرة هذه الثورة.

إن الذي يتفهّم سنن الله تعالى في التاريخ يستطيع أن يفهم بوضوح حتمية الصراع بين هاتين القوتين، القوة الإسلامية النامية وقوة الكفر العالمي... وإن هذا الصراع سوف يكون أقسى أنواع الصراع وأطولها وأكثرها دواماً واستمرارية؛ ذلك أن هذا الصراع صراع على البقاء ـ كما قلنا ـ والصراع على البقاء يطول ويقسو ويستمر، فالصراع هنا صراع على العقيدة والحضارة، وليس صراعاً على ماء وطين وعلى نفط وصلب ونحاس، حتى يمكن فيه التفاهم واللقاء.

إن هذه الثورة والدولة قد كسرتا نطاق دائرة النفوذ الاستكباري الشرقي والغربي على العالم الإسلامي، وخرجت الدولة الإسلامية لأول مرة عن منطقة نفوذ القوى الكبرى بشكل كامل، وتعمل الثورة الآن لفك هذا الحصار عن كل العالم الإسلامي... ومن الطبيعي أن يواجه الاستكبار هذه الثورة ودولتها الناشئة بكل أنواع الضغوط والمؤامرات من الداخل والخارج لتحجيمها واستهلاكها وتطويقها.

إن الحرب العراقية الإيرانية، جزء من هذا المخطط الاستكباري

الرهيب، وجزء من هذا الصراع الذي تحدثنا عنه والنظام البعثي ليس هو الطرف في هذه الحرب، وإنما هو منفذ لإرادة القوى الكبرى... والطرف الحقيقي في هذا الصراع هو الدول الكبرى، التي تتقاسم فيما بينها الشعوب المستضعفة والمضطهدة على وجه الأرض.

إن الثورة الإسلامية يجب أن تواجه هذا الصراع الطويل والقاسي، ويجب أن تواصل مواجهة الأمر الواقع الذي لا يمكن تجنبه، ذلك ضريبة الثورة والإنجازات الكبرى التي تحققها هذه الثورة في حياة الإنسان.

على أن الثورة لا تستطيع أن تحقق هذه الانجازات الكبرى، ولاتستطيع أن تؤهل أبنائها للقيام بالأعمال الكبيرة ومواجهة التحديات الصعبة، من دون أن يتمرسوا طويلا في الصراع والبناء.

٣ ـ والعاقبة في هذا الصراع للمتقين:

ومهما نشك في شيء فلا نشك في هذه الحقيقة.

إنّ الأُمّة المؤمنة لا تدافع عن نفسها، وإنما تدافع عن دين الله وشريعة الله وحدوده، ولا تواجه أعداءها وإنما تواجه أعداء الله، ولا تحارب بحولها وقوتها، وإنما تحارب بحول الله وقوته.

فإذا استوفت هذه الأُمّة الشروط، ووضعت ثقتها في الله، وأعطت

نفسها لله، وتخفّفت عن التعلق بالدنيا وحبّها، وتحصنت تجاه الأهواء، وقامت لله تعالى مثنى وفرادى، فإنّ الله تعالى ينصرها طال عليها الأمر أم قصر.

فإنّ ذلك وعد الله تعالى، ولا يخلف الله وعده، فلنستمع إلى خطاب الله الكريم لنا:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٧٨].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧٩].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٨٠].

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٨١].

﴿وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا﴾[٨٢].

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٨٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٨٤].

إن المعركة وان طالت، وان قست، فلن يتركنا اللهُ لأعدائنا، ولن يتخل الله تعالى عنا، ولن يُخْلف الله وعده، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً **﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾**[٨٥].

وإنّ محنة الصراع، إن طالت، فلكي يمتحن الله قلوب عباده،

ويعرف الثابتين منهم عن المهزومين ـ وهو العالم بخفايا القلوب ـ ولكي يُثَبِّت الله للمؤمنين قدم صدق على أرض المعركة، ولكي يتخفف المؤمنون في هذا الصراع من حب الدنيا والتعلق بها، ولكي يزدادوا يقيناً بالله تعالى في خضم هذا الصراع. فإنّ الإنسان لا يرزق اليقين في أيام الراحة والعافية، كما يناله في ساعات الابتلاء والشدّة.

ولكي يتمرس المؤمنون على مواجهة التحديات الكبيرة وتجاوز الصعاب في سبيل الله، ويزدادوا بأساً وقوة وشجاعة، ولكي يقوى في قلوبهم الولاء والبراءة، فإنّ الولاء يقوى من خلال التضحية والعطاء، والبراءة تقوى من خلال المواجهة والقتال.

وليس هذا الصراع وما يستتبعه من آلام وعناء يخص هذه الثورة، أو يخص هذا الدين، وإنما هو سنة الله تعالى في حياة الصالحين من عباده، الذين يرتضيهم الله تعالى لرحمته، والذين يسكنهم الله تعالى جنته مع عباده الصادقين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٨٦].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم

مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾[٨٧].

إن نفوسنا الضعيفة لتهوى أن تقتطف النصر من أقرب السبل، وبأيسر الأسباب، وان لا يكلفها دينها شيئاً، وأن نَمُدَّ أيدينا فننال النصر والإمامة والخلافة على وجه الأرض.

لكن الله الحكيم، يعلم أن النصر إذا جاء يسيراً، وعلى غير طريق ذات الشوكة، لايؤهِّلُ الإنسان للإمامة وخلافة الله على وجه الأرض، فيريد الله تعالى لنا أن نتمرّس ونقوى، ونحقق حاكمية دين الله في الحياة على طريق ذات الشوكة.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[٨٨].

ولنستمع إلى هذه الآيات البيّنات من كتاب الله من سورة آل عمران، تشرح سنن الله تعالى في الصراع، والعناء والمحبة، والنصر، والفتح في تسلسل رائع جميل:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *

وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٨٩].

وفي هذه الآيات المباركات من سورة آل عمران إجابات شافية على كل الأسئلة التي تخطر على بال المؤمنين في هذا الصراع الرهيب بين الإسلام والكفر.

لقد كان المسلمون يظنون بعد أن نَصَرَهُمُ الله تعالى ببدر، أن النصر حليف الفئة المؤمنة دائماً، ولايفارقهم، ولا يعدوهم، وأنهم إذا آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا في سبيل الله، فلن يتخلّف النصر عنهم، في حال من الأحوال، فلما أذاقهم الله مرّ الهزيمة في أحد، وانتكس المسلمون في هذه المعركة، عندما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، وتخلوا عن مواقعهم، بحثاً عن الغنائم... إهتزت نفوس المسلمين، واهتزت الثقة في نفوسهم بالنصر، وعادوا يشكون في أن تكون لهم عاقبة الأمر، وغلب الضعف على النفوس، وتمكن الحزن من نفوسهم على الذين استشهدوا في هذه المعركة، من سراة المسلمين، ومن الصفوة المؤمنة الذين صدقوا الله، وأخلصوا له في العمل والجهاد.

فيعيد الله تعالى إلى نفوسهم الثقة بالنصر، أولا، ويُطَمئِنُهم بأن العاقبة للمؤمنين، مهما كانت القروح والآلام والانتكاسات والعناء،

خلال طريق ذات الشوكة، ويمسح الضعف والوهن والحزن عن نفوسهم، ويثبت أفئدتهم وقلوبهم بالنصر والعلو.

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

ثم يذكّرهم الله تعالى ثانياً، أن ما مسّهم من القرح في الحرب لم يمسهم فقط، وإنما مس أعداءهم أيضاً، وهذا القرح وما يصيب المقاتلين من أذى وتعب وخسائر من متطلبات المعركة، في كل من الطرفين، ولايمكن أن تجري معركة من دون قروح وآلام.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

وقد جرت سنّة الله تعالى أن يداول الأيام بين الناس، فَيَجْعَلَ يوماً للمؤمنين على الكافرين، وآخر للكافرين على المؤمنين، ويَنْصُرَ هؤلاء في يوم، ويذيقهم مُرّ الانتكاسة في يوم آخر... وهكذا يداول بينهم النصر، على أن العاقبة للمؤمنين فقط. وهذه المداولة لا تغير مشيئة الله تعالى في أن العاقبة للمتقين.

وإنما يداول الأيام بين الناس، يذيق المؤمنين الشدة والرخاء، ونشوة النصر، حيناً، ومرارة الهزيمة، حيناً آخر، ليتميز الذين آمنوا وصدقوا في إيمانهم، وثبتوا على الإيمان، عن المنافقين وضعاف النفوس وأصحاب النفوس المهزومة.

فإنّ مسيرة الدعوة لو كانت محفوفة بالنصر والغنائم دائماً، ومقرونة باليسر والرخاء لتراكمت عليها العناصر المنافقة، والعناصر التي تحسن التسلق، أُولئك الذين يغيبون حين البأس، ويحضرون حين توزيع الغنائم، وتطول ألسنتهم في المطالبة بالغنائم والحصص.

﴿فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[٩٠].

إن مسيرة الدعوة لو كانت تخلو من المكاره ومرارة الانتكاسات، لتجمعت حولها هذه الطائفة من المنافقين، وضعفاء النفوس، واحتلّوا منها المواقع الحساسة. وإذا ما تولت هذه الطائفة أمور الدعوة والمسيرة تعطل دورها القيادي في حياة الناس، وفقدت الدعوة قدرتها على التغيير والقيادة، وتحولت الدعوة من طريق ذات الشوكة في مواجهة الطاغوت إلى مسيرة مترفة، عامرة باللذّات، ومتع الحياة، وفقدت كل إمكاناتها على العمل والتغيير والحركة.

فلابُدّ في هذه المسيرة بين حين وآخر من انتفاضة قوية، تطرد المنافقين وضعفاء النفوس عن موكب هذه الدعوة، وتستخلص المؤمنين الأقوياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا لله في عملهم.

فليست مسيرة هذه الدعوة كسائر ما يألفه الناس من مسيرات الأنظمة والحكومات التي تطلب الحياة الوديعة، المترفة، والعافية، والابتعاد عن المنغّصات... حتى تستطيع أن تعيش مع هؤلاء المنافقين، وتحقق غاياتها من خلالهم.

أمّا عندما تتعرض هذه المسيرة للآلام، والمحن، المصائب، ومتاعب الطريق، والدم، والانتكاسات المرّة، فإنّ جو الدعوة يصفو للمؤمنين، وتخلص هذه المسيرة للصفوة الصادقة من المؤمنين المجاهدين، ويتميز المؤمنون عن غيرهم ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾، وليس هذا فقط فائدة تداول الأيام، وتناوب النصر والهزيمة، والشدة والرخاء على المؤمنين، وإنما لكي يتخذ الله منهم شهداء وقدوات وأئمة في الأرض أيضاً.

فمن خلال هذه المعاناة، ومن خلال مرارة الانتكاسات، وقروح الحروب، وآلام المواجهة... تتكون في هذه الأُمّة شهداء ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**﴾[٩١] وقدوات وأئمة وأمثلة في الثبات والصبر والإيمان.

إن النماذج الإيمانية الفريدة في تاريخ البشرية لا تتكون في الحياة الهادئة الوديعة، المترفة، وإنما تتكون في زحمة متاعب الحياة، وفي

وسط متاعب العمل، وبين الدماء والدموع.

ولابُدّ للمسيرة من هذه النماذج الفريدة في الإيمان والثبات... وهذه النماذج يتخذها الله تعالى، ويختارها في ظروف المحنة والتداول ﴿**وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء**﴾، ثم لهذا التداول فائدة ثالثة في تكوين هذه الأُمّة وتقويم شخصيتها، وهي أن هذه القروح والآلام والمتاعب تمحّص المؤمنين وتزكيهم وتطهّر قلوبهم من ريب الشك، ومن سلطان الأهواء وتخلص نفوسهم من نقاط الضعف. فلربّ إنسان مؤمن تخفى عليه نقاط الضعف والوهن في نفسه في أيام اليسر والعافية، فإذا جدَّ الجد وأشتد البأس اكتشف نقاط الضعف في نفسه، فأعاد النظر في نفسه وأصلحها.

فلرب ضعف في نفس الإنسان لايستطيع أن يسدّه الإنسان ويُصْلحه في أيام العافية، وإنما تصلحه الشدة والمعاناة، فإنّ المعاناة والشدة كما تصفّي صفوف المؤمنين من المنافقين، كذلك تصفي نفوس المؤمنين من نقاط الضعف والوهن والشك، وتمحص المؤمنين.

أمّا بالنسبة إلى الكافرين فإنّ المعاناة والمحنة تمحقهم، وتهلكهم، وتبيدهم، فلايستطيع أُولئك أن يقاوموا المعاناة والمحنة.

﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾.

وبعد، فليس من الصحيح أن نتصور أن كل من شهد هاتين الشهادتين، وأسلم أو آمن بالله ورسوله، يدخل الجنة؛ فإنّ في الناس منافقين لا تتجاوز الشهادتان ألسنتهم، ولاتستقر في قلوبهم.

والمؤمنون درجات ومراتب في إيمانهم، فليس كلهم بمستوى واحد من الإيمان والعمل الصالح.

فهناك المؤمنون الذين يؤثرون العافية على الجهاد والقتال في سبيل الله.

وهناك المؤمنون المجاهدون.

وهناك المؤمنون المجاهدون الصابرون.

ومن الخطأ أن نتصور أن هؤلاء جميعاً في الجنة في درجة واحدة، فلكل درجته ورتبته ومكانته عند الله. وهذه المرتبة والمكانة تتحدد في ظروف المحنة فقط، حيث يتميز المؤمن عن المنافق، ويتميز المجاهدون عن غيرهم من المؤمنين، ويتميز الصابرون عن غيرهم من المجاهدين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

٤ ـ وهذه الثورة المباركة بداية انعطاف كبير:

في التاريخ والحضارة الإنسانية، وأمر ذو بال وذو خطر كبير في حياة الإنسان ومستقبله، والذي يستقرء الروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أهل بيته، لايشك أن هذه الثورة بخصائصها البارزة، وقيادتها سوف تمهّد للانقلاب الكبير الذي يقوده الإِمام المهدي من آل محمد (عجل الله فرجه).

وان اليوم الموعود الذي وعدنا الله تعالى به ورسوله بقيام دولة الإسلام الكبرى، وتمكين المستضعفين من الأَرض وقيام الإمام المهدي (عليه السلام) بالثورة الكبرى في الأرض... لقريب إنشاء الله، وان هذه الثورة توطئ الأرض لتلك الثورة، وتُمَهِّد الأُمّة لظهور وقيام القائم من آل محمد ﷺ، وفيما يلي ننقل إضمامة من هذه الروايات:

* عن عبد الله بن مسعود قال: أتينا رسول الله ﷺ فخرج إلينا مستبشراً، يعرف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلاّ أخبرنا به، ولا سكتنا إلاّ ابتدأنا... حتى مرت فتية من بني هاشم فيهم الحسن والحسين (عليهما السلام)، فلما رآهم التزمهم وانهملت عيناه.. فقلنا يارسول الله: مانزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه؟ فقال:

«إِنّا أهل بيت إِختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وأنه سَيَلْقى أهل بيتي

من بعدي تطريداً وتشريداً في البلاد، حتى ترتفع رايات سود في المشرق، فيسألون الحق فلا يُعْطَونه، ثم يسألونه فلا يُعْطونه، ثم يسألونه فلا يعطونه، فيُقاتلون فيُنصَرون... فمن أدركه منكم ومن أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي، ولو حبواً على الثلج، فإنّها رايات هدى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي، يواطي اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملك الأرض فيملؤها قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً»[٩٢].

* وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «كأني بقوم قد خرجوا بالمشرق، يطلبون الحق فلا يُعْطونه، ثم يطلبونه فلايُعْطونه، فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم... فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يقوموا، ولايدفعونها إلاّ إلى صاحبكم (أي المهدي عليه السلام)، قتلاهم شهداء، أما إني لو أدركت ذلك لأبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»[٩٣].

* قال المجلسي رحمه الله: وروى بعض أصحابنا قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام جالساً، إذ قرأ هذه الآية: **﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾**[٩٤]، فقلنا: جعلنا فداك من هؤلاء؟ فقال ثلاث مرات: هم والله أهل قم»[٩٥].

* وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «رجل من أهل قم، يدعو الناس

إلى الحق، يجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف، ولايملون من الحرب، ولا يجبنون، وعلى الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين»[٩٦].

* وعن علي بن ميمون الصائغ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجة على أهل الخلائق، وذلك في زمان غيبة قائمنا إلى ظهوره، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها»[٩٧].

* ورُوِيَ عن الإمام الصادق عليه السلام، انه ذكر الكوفة وقال: «ستخلو كوفة من المؤمنين، ويأزر عنها العلم، كما تأزر الحية في جحرها، ثم يظهر العلم ببلدة يقال لها قم، وتصير مَعْدنا للعلم والفضل، حتى لايبقى في الأرض مستضعف في الدين حتى المخدرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهور قائمنا، فيجعل الله قم وأهله قائمين مقام الحجة، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها ولم يبق في الأرض حُجَّة، فيفيض العلم منه إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب، فتتم حجة الله على الخلق، حتى لا يبقى أحد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم، ثم يظهر القائم عليه السلام..»[٩٨].

* وقال صاحب التفسير الكشاف في تفسير قوله تعالى: **﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾**[٩٩]. قال: «وسئل

رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن القوم، وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه، وقال: هذا وقومه، والذي نفسي بيده لوكان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من أهل فارس»[١٠٠].

فهذه اضمامة من الروايات التي تشير إلى استمرارية هذه الثورة المباركة حتى ظهور الإمام المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله)، وان هذه الثورة المباركة ـ والتي تتسع رقعتها إنشاء الله ـ سوف تمهّد الأرض لظهور وقيام الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

الفهرس

الهوامش

١ـ النور: ٥١.　٢ـ الحجرات: ١٤.　٣ـ النساء: ١٣.

٤ـ آل عمران: ٣٢.　٥ـ آل عمران: ١٣٢.　٦ـ النساء: ٥٩.

٧ـ النور: ٥٤.　٨ـ الشعراء: ١٥٠ـ ١٥١.

٩ـ التوبة: ٢٤.　١٠ـ البقرة: ١٦٥.　١١ـ محمد: ٧.

١٢ـ الحج: ٤٠.　١٣ـ الأنفال: ٧٢.　١٤ـ الأنفال: ٧٤.

١٥ـ الأعراف: ١٥٧.　١٦ـ النساء: ٥٩.　١٧ـ الأنفال: ٧٢.

١٨ـ التوبة: ٧١.

١٩ـ أخرجهما مسلم في صحيحه ٨: ٢٠ـ ط. دار الفكر.

٢٠ـ بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٩.

٢١ـ آل عمران: ٢٨.　٢٢ـ النساء: ١٤٤.　٢٣ـ المائدة: ٥١.

٢٤ـ التوبة: ٢٣.

٢٥ـ راجع بحث (الولاية) بقلم ولي أمر المسلمين سماحة آية الله السيد علي الخامنئي.

٢٦ـ الزمر: ٢٩.　٢٧ـ يوسف: ٣٩.

٢٨ـ الوافي ٣: ٢٢.

٢٩ـ تعتبر ولاية الفقيه كما نفهم من الروايات والنصوص الشرعية ـ منصب النيابة عن «ولي الأمر»، وليس هو نفس منصب «ولاية الأمر».

حيث أن «ولي الأمر» في عصرنا الحالي هو الإمام الحجة؏، وأما الفقهاء فهم نوابه في ولاية الأمر، وبذلك فإنّ الأمر بالنسبة للولي الفقيه ومسألة انتخابه واختياره من قبل الأُمّة ـ بعد إحراز توفر الشروط فيه ـ لا يكون نقضاً للأصل الذي ذكرناه هنا.

٣٠ـ البقرة: ١٢٤.　٣١ـ سورة ص: ٢٦.　٣٢ـ الأنبياء: ٧٢ـ ٧٣.

٣٣ـ أصول الكافي ٢: ١٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٢٩.

٣٤ـ أصول الكافي ٢: ٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٣٠.

٣٥ـ النساء: ٨٠.

٣٦ـ أصول الكافي ٢: ١٨، بحار الأنوار ٦٨: ٣٣٢ـ ٣٣٣.

٣٧ـ أخرج هذا الحديث أئمة الحديث بطرق كثيرة، وقد دوّن طرقها العلامة اللّكهنوي مير حامد حسين في عدة مجلدات من كتابه القيم العبقات. منها مثلا صحيح مسلم ٧: ١٢٢.

٣٨ـ البقرة: ٢٥٧.　٣٩ـ الزخرف: ٥٤.　٤٠ـ النساء: ٧٦.

٤١ـ البقرة: ١٢٠.　٤٢ـ الأنفال: ٣٩ـ ٤٠.

٤٣ـ التقى الإمام الحسين؈ في مسيره إلى العراق بمنزل الصفاح بالفرزدق بن غالب (الشاعر) فسأله عن خبر الناس خلفه، فقال الفرزدق: قلوبهم معك والسيوف مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء. فقال الحسين؈: صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء وكل يوم هو في شأن إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر، وان حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته. الطبري ٦: ٢١٨، وابن الأثير ٤: ١٦.

٤٤ـ الفتح: ٢٩.　٤٥ـ البقرة: ١٣٦.　٤٦ـ البقرة: ٢٨٥.

٤٧ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤٣.

٤٨ـ مقتل الحسين للمرحوم السيد عبد الرزاق المقرم: ١٢٧ ط. النجف.

٤٩ـ المصدر السابق: ٢٣٨.

٥٠ـ ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٥ من قصيدة يرثي بها الحسين؈.

٥١ـ مثير الأحزان: ٥٦.

٥٢ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤١.

٥٣ـ مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٢.

٥٤ـ في بعض الروايات: (السيد المهذبا) بدلا من (الملك المحجبا).

٥٥ـ المصدر السابق: ٢٣٨.

٥٦ـ مقتل الحسين لخطيب خوارزم ٢: ٣٩.

٥٧ـ زيارة وارث.

٥٨ـ الأنفال: ٧٣. ٥٩ـ التوبة: ٧١. ٦٠ـ النحل: ١٢٠.

٦١ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم ٢: ٣٩.

٦٢ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩.

٦٣ـ الأحزاب: ٣٣. ٦٤ـ آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

٦٥ـ خصال الصدوق ٢: ٥٢، وبحار الأنوار ٢٧: ٥٣.

٦٦ـ مكاتيب الرسول: ١٢٠.

٦٧ـ المحاسن: ١٦٥، بحار الأنوار ٢٧: ٥٢.

٦٨ـ فقه الرضا: ٥١، بحار الأنوار ٢٧: ٥٧.

٦٩ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

٧٠ـ المصدر السابق.

٧١ـ الخصال ٢: ١٥٣ ـ ١٥٤، بحار الأنوار ٢٧: ٥٢.

٧٢ـ التفسير المنسوب للإمام العسكري: ١٨، معاني الأخبار: ١١٣، عيون الأخبار: ١٦١، علل الشرائع: ٥٨، وروى عنهم العلامة المجلسي في البحار ٢٧: ٥٤.

٧٣ـ زيارة وارث المطلقة وزيارة عاشوراء المخصوصة باختلاف يسير.

٧٤ـ زيارة عاشوراء المخصوصة.

٧٥ـ الأنفال: ٤١.

٧٦ـ من الممكن أن تكون معركة صفّين بين أمير المؤمنين علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان يوم الفرقان الثاني في تاريخ الإسلام، و(الطف) يوم الفرقان الثالث.

٧٧ـ القصص: ٥ ـ ٦. ٧٨ـ الصافّات: ١٧١ ـ ١٧٣.

٧٩ـ الروم: ٤٧. ٨٠ـ غافر: ٥١. ٨١ـ المائدة: ٥٦.

٨٢ـ النساء: ٤٥. ٨٣ـ الفرقان: ٣١. ٨٤ـ محمد: ٧.

٨٥ـ الأحزاب: ٢٢. ٨٦ـ التوبة: ١٦. ٨٧ـ البقرة: ٢١٤.

٨٨ـ الأنفال: ٧ ـ ٨ ٨٩ـ آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢.

٩٠ـ الأحزاب: ١٩. ٩١ـ البقرة: ١٤٣.

٩٢ـ أخرجه الحاكم في المستدرك ٤: ٤٦٤ و٥٥٣، وابن ماجة في السنن ٢: ٥١٨ و٢٦٩ وابن حجر في الصواعق المحرقة: ١٠٠ وغيره.

٩٣ـ بحار الأنوار ٥١: ٨٣ و٥٢: ٤٣.

٩٤ـ الإسراء: ٥.

٩٥ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢١٦.

٩٦ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢١٦ و٤٤٦.

٩٧ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢١٣.

٩٨ـ بحار الأنوار ٥٧: ٢١٣.

٩٩ـ محمد: ٣٨.

١٠٠ـ التفسير الكشاف للزمخشري ٤: ٣٣١.